جامعة المنيا
بكلية دار العلوم
قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية

العلاقات الدبلوماسية للخلافة العباسية

من عام ١٣٢ - ٢٣٢ هـ

رؤية حضارية

اعداد
دكتور
احمد تونى عبد اللطيف
استاذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية المساعد
بكلية دار العلوم بالمنيا



مركز اسكندرية للكتاب
٤٦ ش د. مصطفي مشرفة - الازاريطة ت.ف ٤٨٤٦٥٠٨

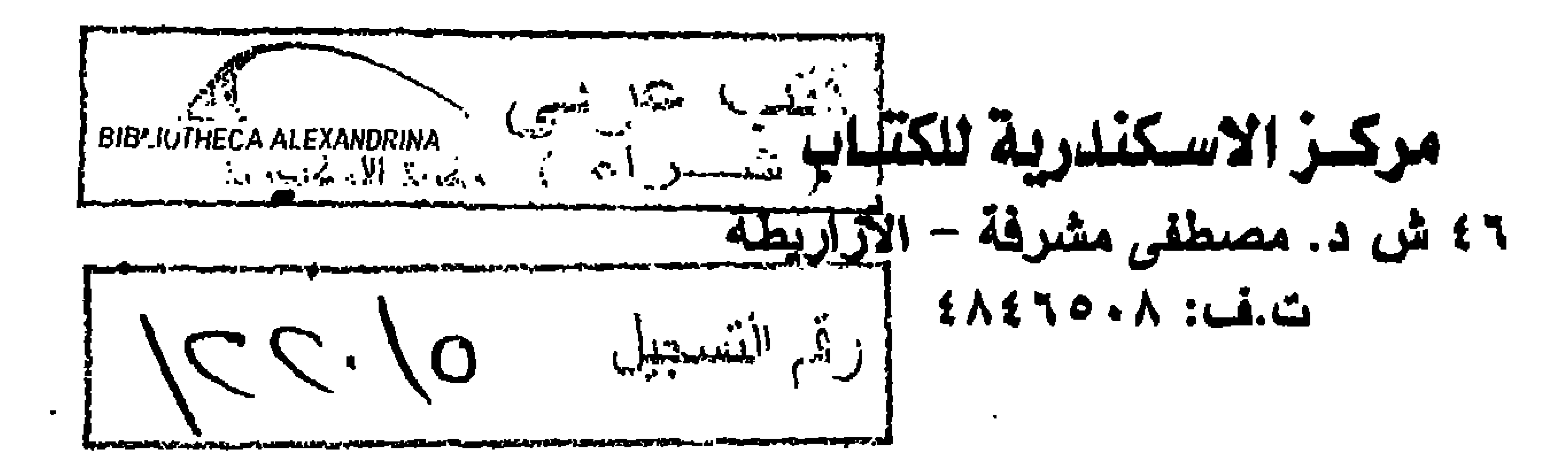
جامعة المنيا
كلية دار العلوم
قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

العلاقات الدبلوماسية للخلافة العباسية ١٣٢-٣٣٢هـ

رؤية حضارية

إعداد
دكتور
أحمد تونى عبد اللطيف
أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

٢٠٠٤



مركز الاسكندرية للكتاب
٤٦ ش د. مصطفى مشرفة - الأزاريطة
ت.ف: ٤٨٤٦٥٠٨

مُقَدِّمَة

*****

بفطرته دائما ميال للعلاقات ، وبطبيعته يجمع بين المتناقضات ، ذلك هو الإنسان الذى مافتيئ أن يظهر إلي حيز الوجود حتى احتاج إلي غيره ، يواسيه فى ملماته ، ويهنؤه فى مغانمه ، يعينه إذا احتاج ، ويستفد منه إذا عنه فاض .

وما أن ظهرت إلي حيز الوجود أولي الجماعات البشرية إلا واحتاجت إلي العلاقات الودية بين أفرادها وشخوصها ، كوقف قتال على سبيل المثال من أجل مصلحة مشتركه ، لالتقاط الأنفاس ، أو حصرٍ للقتلى ، أو تضميدٍ للجرحى ، أو تقسيمٍ لمناطق النفوذ ، أو تحديدٍ لملامح المستقبل ، أو غير ذلك من الأمور التى تحتاج إلي العلاقات الودية .

وبالطبع فإن هذه المهمات اضطلع بها رجال توفرت فيهم الحنكة والكياسة ، الحصافة والمقدرة ، حسن التصرف واللياقة واللباقة ، قوة البيان وسحر القول ، حتى ينجزوا مهماتهم فنشأت بذلك العلاقات الدبلوماسية .

وما أن تنامى المجتمع الدولي حتى تنامت العلاقات الدبلوماسية بين شخوصه وتعددت أغراضها ومجالاتها .

ولأهمية هذه العلاقات ، وللدور المبرز الذى أداه المسلمون فيها حاولت ، أن أسطر بعضاً من الأسطر أوضح فيها ذلك الدور الحضارى

الرائد للمسلمين فى هذا المجال لكى يتضح بجلاء الدور الإسلامى الفعال فى إنماء شجرة الحضارة الإنسانية .

ولقد قسمت هذا البحث إلي مدخل وبابين ، وألقيت فى المدخل ضوءً على الدبلوماسية من حيث التعريف والمفهوم لدى بعض الكتاب ومن اعتنوا بها شرقاً وغرباً .

أما الباب الأول : فجاء ليوضح : التطور التاريخى للفكر الدبلوماسى، بدأ هذا التوضيح بتمهيد أعقبته إشارات عن الدبلوماسية فى المجتمعات القديمة (الفرعونية ، والمدنيات الآسيوية ، واليونان ، والرومان) .

وقد أثبتت الدراسة وجود العلاقات الدبلوماسية وتنوع أغراضها لدى هذه المجتمعات ، ثم أثبتت أيضاً وجود هذه العلاقات لدى شخوص مجتمع العصور الوسطى سواء كان ذلك عند العرب قبيل الإسلام أو فى الدولة الإسلامية الناشئة أو لدى بيزنطة .

ولقد خلصت الدراسة إلي تأكيد على وجود علاقات دبلوماسية متعددة الأغراض مختلفة الأطر لدى هذه المجتمعات ، كما أكدت أيضاً على دور العرب والمسلمين المبرز فى هذا المجال ، وكذلك مدى الصدق والثبات الذى تحلت به الدبلوماسية الإسلامية على عكس ماكان من نفاقٍ لدى دبلوماسية الغرب التى بنيت فى أساسها على فكر وثقافه هرمس .

وجاء الباب الثانى ليبرز العلاقات الدبلوماسية للخلافة العباسية من عام ١٣٢ إلي ٢٣٢هـ ، ذلك العصر الذهبى للخلافة ، وقد أوضحت

الدراسة تنوع العلاقات الدبلوماسية للخلافة العباسية ، وتعدد مجالاتها فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة .

وقد أبرزت الدراسة الدور الدبلوماسى الفعال لدى خلفاء بنى العباس ، ورعايتهم لهذا الجانب ، مرونتهم فى الأخذ به والإستفادة من آلياته

ويمكن أن نعد ماكان من دبلوماسية فى هذا العصر بمثابة تنظير لما سبق فى العصر الوسيط والقديم .

وبهذا نكون قد أوضحنا ماكان للعرب والمسلمين من دور بارز ومهم فى المجال الدبلوماسى ، وأوضحنا ماقدموه للحضارة الإسلامية خاصة ، وما أضافوه من درر فى جبين الحضارة الإنسانية عامة .

ولقد اتبعت فى هذا البحث منهجاً تحليلياً لما ورد فيه من النصوص ، وهى نوعان . إما خطاب مرسل ، أو قول لمبعوث ينقله عن مرسله . وحاولت قدر الجهد والطاقة نقل النصوص بعناية ، ومقارنتها بنصوص أخرى وكشف أوجه الخلاف بينها ومتابعة تواترها والأخذ هن أقدمها .

ولقد اعتمدت فى هذه الدراسة على بعض المصادر الأصلية والمراجع المهمة التى عالجت ذلك الموضوع ، ومن أبرزها كتاب (رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة) لابن الفراء ، والذى حققه الدكتور صلاح الدين المنجد ، وأفدت منه كثيراً فيمن أرسل من المبعوثين فى العصر
النبوى والراشدى والأموى والعباسى ، ولقد أوضح هذا الكتاب الدور المهم للمبعوث ولرسالته والتى عبرت عنه تلك الكلمات .

ليس الكتابُ ببالغٍ لك مبلغا

حتى يكون مع الكتاب رسولُ

مافى كتابك غيْر ماحملتــــه

لكن رسولك كيف شاء يقــولُ

فإذا جمعتهما ولم تفردهمـــا

بَلغ النجاح وأدرك المأمــــــولُ

كذلك أفدت من كتــاب المسـعودى (مـروج الذهـب ومعـادن الجوهر) فـى وصـول وفـد (عبدالمطلب بـن هاشـم) لتهنئـة معديكـرب ملك اليمن ، وفى علاقة معاوية الدبلوماسية بامبراطور بيزنطـة ، وغير ذلك من العلاقات الدبلوماسية .

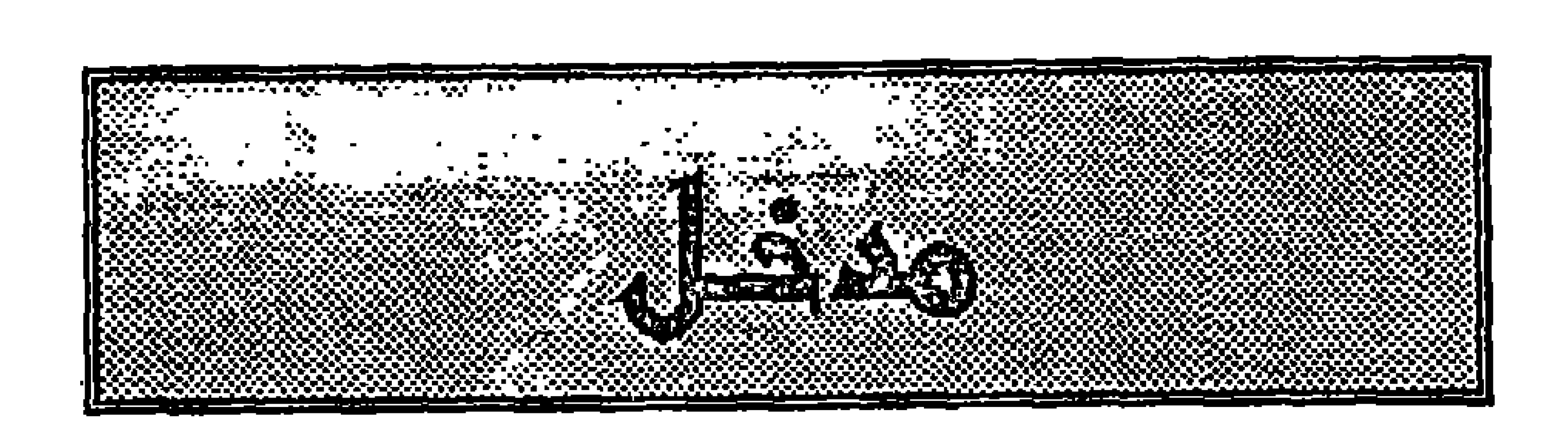
وايضا كـان (للعقـد الفريـد) لابـن عبدربـه دوره المهم فـى إبانـة كثير من جوانب الدراسة ، ولايفوتنا فى هـذا المقـام كتـاب (تـاريخ الأمـم والملوك) للطبرى ، وماحواه مـن مراسـلات وردود مهمـة بـين خلفـاء الدولة الإســلامية على مـر عصورهـا وغيرهـم مـن ملـوك وحكـام الـدول الأخرى .

هذا فضلاً عن العديد والعديد من المصـادر والمراجـع المهمـة التـى جاءت فى ثنايا البحث .

وبعد فإن أضاف هذا البحث شيئاً فى مجال الحضارة الإسـلامية فهو توفيق من الله ، وإن كان غير ذلك فالتقصير من نفسى .

والله اسأل التوفيق والرشاد .،

أحمد تونى



ما الدبلوماسية ؟

ما الدبلوماسية ؟

هذا تساؤل لابد منه وللإجابة عليه نشير إلى ثلاثة محاور رئيسية ، أولها : تطور كلمة الدبلوماسية ، وثانيها : مدلول هذه الكلمة ، وثالثها : تعريفاتها المتباينة .

نستهل كلامنا بتطور كلمة الدبلوماسية ، وعنها نقول : إنها كلمة إغريقية الأصل قصد بها الوثيقة أو المكاتبة التى كانت تطوى كما يطوى الخطاب ، وذلك نسبة إلى الإسم الإغريقى القديم دبلوما Diploma ومعناه الوثيقة المطوية .

ومما هو جدير بالذكر ، أن كلمة دبلوما Diploma هذه ، كانت قد أطلقت من قبل ، على نوع من الوثائق الرسمية التى بعث بها حكام البلاد فيما بينهم ، والتى منحت حاملها امتيازاً خاصاً ، ولقد سميت هذه الوثائق (دبلوما) لأنها طويت عند تسليمها أو طبقت اثنين فهى إذن مطوية أو دبلوما.(١)

انتقلت بعد ذلك كلمة الدبلوماسية من الإغريقية إلى اللاتينية ، وأطلقت حينذاك على الشهادات الرسمية أو الوثائق التى كانت بمثابة المرآة العاكسة لصفات المبعوث ، والمهمة الموفد من أجلها ، وتوصيات رئيسه بشأن الاحتفاء به ، وتسهيل مهمته ، فهى بذلك تكون كجواز السفر بلغتنا المعاصرة . ومما عرف آنذاك أن هذه الشهادات أو الوثائق كانت عبارة عن أوراق تمسكها قطع حديدية سميت Diploma (٢)

كما أطلق الرومان أيضاً كلمة الدبلوماسية على طباع السفير أو المبعوث ، وبعض خصاله ؛ كالتزام الأدب ، والتظاهر بالمودة ، وتجنب أسباب النقد ، وهو ماقصدته الكلمة اللاتينية Depliorae بمعنى الرجل المنافق ، ومنها اشتق اللفظ الفرنسى Duplicite بنفس المعنى السابق .(٣)

وهكذا رأينا كيف انتقلت كلمة الدبلوماسية من الإغريقية إلى اللاتينية ، وأصبحت تطلق لتعبر عن الشهادات الرسمية أو الوثائق ، بالإضافة إلى إطلاقها على خصال السفير أو المبعوث .

بيد أن كلمة دبلوماسية بمعناها المتعارف عليه الآن لم تستخدم إلا فى القرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادى ، ولاأدل على ذلك من ظهور الكلمة الإنجليزية Diplomacy عام ١٧٩٦م لتعبر عن إدارة العلاقات الدولية ، بينما استخدمت كلمة Envoy إبان القرن السابع الميلادى كترجمة للفظ اللاتينى Missus أو Legatus ، بمعنى الشخص الموفد فى مهمة خاصة ، وقد استخدم الأسبان كلمة سفارة نقلاً عن التعبير الكنسى Ambactus بمعنى الخادم ، كما استخدمت خلال تلك الفترة كلمة Negociation بمعنى مفاوض ومفاوضة دلالة على الدبلوماسية .(٤)

هذا عن تطور كلمة الدبلوماسية حسبما أمدتنا به بعض المراجع .

وأما عن مدلول هذه الكلمة ، فمما لاشك فيه أنه قد اتسع اتساعاً بينا ؛ فبعد أن كان يطلق على دراسة الوثائق الرسمية ، تعددت معانيه واختلفت فيما بينها ، ولا أدل على ذلك من استخدام كلمة الدبلوماسية كتعبير عن المهنة التى يمارسها الرجل الدبلوماسى ، وكذلك استخدمت

أيضا تعبيراً عن الدهاء والكياسة ؛ فقيل هذا الشخص دبلوماسى بمعنى أنه قادر على تحقيق أغراضه وأهدافه بالمكر والخديعة .(٥)

وفضلا عن ذلك أطلقت الكلمة على مجموع الهيئة التى تتولى توجيه وتصريف الشئون الخارجية لدولة معينة ؛ فيقال : الدبلوماسية المصرية ، والدبلوماسية الأمريكية ، والدبلوماسية الصينية ، والدبلوماسية الفرنسية وهكذا .

وبالإضافة إلى ماتقدم أطلقت كلمة الدبلوماسية لتعبر عن المفاوضات ؛ فيقال : إن النزاع بين هذه الدولة وتلك سيسوى بالطرق الدبلوماسية ، كما استخدمت الكلمة كمرادف للسياسة الخارجية لدولة ما أو لمجموعة من الدول تجاه دولة أو مجموعة من الدول الأخرى ، فيقال مثل : الدبلوماسية المصرية ترحب بالدبلوماسية السورية ، أو الدبلوماسية المصرية ترحب بالدبلوماسية العربية ، أو الدبلوماسية الأمريكية تجاه دول جنوب إفريقيا الخ ...

ولايفوتنا فى المقام أن نقول إن كلمة الدبلوماسية استخدمت أيضا للتعبير عن السياسة الدولية فى حقبة زمنية معينة فيقال: الدبلوماسية القديمة، ودبلوماسية العصور الوسطى ، ودبلوماسية القرن الماضى ، والدبلوماسية الحديثة ، والدبلوماسية المعاصرة .(٦)

وبهذا العرض المتواضع نكون قد ألقينا بصيصاً من الضوء على تطور كلمة الدبلوماسية ومدلولها ، لننتقل بعد ذلك إلى بعض تعريفاتها المتعددة المتباينة فى نفس الوقت وعنها نقول :

لقد تعددت تعريفـات الدبلوماسـية وتبـاينت بيـن الإيجـاز والإطنـاب حسب رؤية الساسة ومن يعنون بدراستها ؛ فها هو (معاوية بن أبى سـفيان) رأس الدولة الأموية وأدهى حكامها يعبر عن الدبلوماسـية فـى إدارة شـئون بلاده قائلا " إنى لا أضع سـيفى حيـث يكفينـى سوطـى ، ولا أضـع سـوطى حيث يكفينى لسانى ؛ ولو أن بينى وبين الناس شعره ما انقطعت فقيـل لـه : وكيف ذلك ؟ قال كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها "(٧).

وبهذا القول الموجز فى حروفه الكبير فى معناه ، قـدم لنـا معاويـة ابن أبى سفيان تعريفا دقيقا وشاملاً للدبلوماسية التى كان يحتذيهـا فـى إدارة شئون بـلاده داخليـا وخارجياً ؛ فهـو يحـافظ بشـده علـى العلاقـة بينـه وبيـن رعيته ، كما يحافظ أيضا على علاقته بالدول الأخرى وعندئـذ كـان يكسـب موقف خصومه ، ويرفع من رصيد اصدقاءه بما يحقق التوازن والاسـتقرار لدولته .

ونحن فى هذا المقال نذكر بعض الأمثلة التى توضح دبلوماسية معاوية، فعنه يقول اليعقوبى أنه " حينما أحضر النـاس لبيعتـه تقدم أحدهم قـائلا لـه والله يامعاوية إنى لأبايعك وإنى لكاره لـك ، فـرد عليـه معاويـة بقولـه إن الله قد جعل فى المكروه خيرا كثيرا " (٨). وهـو رد دبلوماسـى يـدل علـى مدى حنكة ودربة معاويه ، فقد كـان بمقدوره أن يـأمر بـالقبض عليـه ، أو يعنفه على أقل تقدير ، لكن آثر الرد الدبلوماسى ، فربما يكسبه إلى جانبه .

ويذكر اليعقوبى أيضا أن " قيسا بن سعد بن عباده أتى معاوية فقـال لـه معاويـة : بـايع يـاقيس ، فـرد قـائلا . إن كنت لأكره مثـل هـذا اليـوم

يامعاوية، فقال له مه رحمك الله ، فرد قيس بقوله : لقد حرصت على أن أفرق بين روحك وجسدك قبل ذلك ، فأبى الله يا ابن أبى سفيان إلا ما أحب ، فقال معاوية فلا يرد أمر الله ".(٩).

وعندئذ تمادى قيس فى موقفه وأقبل على الناس بوجهه قائلاً : يامعشر الناس لقد اعتضد تم الشر من الخير ، واستبدلتم الذل من العز ، والكفر من الإيمان فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المرسلين وابن عم رسول رب العالمين ، وقد وليكم الطليق ابن الطليق يسومكم الخسف ويسير فيكم بالعسف ، فكيف تجهل ذلك أنفسكم أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لاتعقلون . عندئذ جثا معاوية على ركبتيه ثم أخذ بيد قيس وقال : أقسمت عليك ثم صفق على كفه ، وهنا نادى الناس لقد بايع قيس ، فقال كذبتم والله مابايعت ولم يبايع لمعاويه أحد إلا أخذ عليه الأيمان "(١٠).

وهذا موقف ثان لمعاوية يدل على مدى دبلوماسيته وتقديره لأهمية العامل النفسى للحاضرين ، ومدى تأثرهم بسيرة الإمام على بن ابى طالب وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .إذ جثا معاوية على ركبتيه كما ذكر اليعقوبى ، وأخذ بيد قيس وأقسم عليه وصفق على كفه لينهى الموقف المتأزم لصالحه دون أن يترك مجالاً للّغط وكثرة الكلام والقيل والقال .

وإن كنا نرى فى هذه الصورة التى رسمها اليعقوبى بعض التزيد فربما يرجع ذلك لكونه شيعى المذهب ، ولكن على صعيد آخر أوضحت هذه الصورة مدى حرص معاوية على اجتذاب أعدائه إليه ، أو تحييدهم على الأقل بأية وسيلة ، وتلك فى حد ذاتها دبلوماسية فائقة .

ويذكر أيضا من دبلوماسية معاوية ، أنه ذات مرة بعث إلى رجل من الأنصار بخمسمائة دينار ، فاستصغر الأنصاري المبلغ ، وقال لابنه خذها وامض إلى معاوية " فاضرب بها وجهه وردها عليه ، واقسم على إبنه أن يفعل ذلك "(١١).

فلما قدم الإبن إلى معاوية ومعه الدنانير قال :" ياأمير المؤمنين إن أبى فيه حدة وسرعة وقد أمرنى بكذا وأقسم على وما أقدر على مخالفته . فوضع معاوية يده على وجهه وقال : افعل ما أمرك به أبوك وارفق بعمك ، فاستحيا الصبى وألقى بالدنانير فضاعفها له معاوية وحملها إلى أبيه "(١٢)

وعندما علم يزيد بن معاوية بذلك الأمر غضب غضبة شديدة ، ودخل على والده قائلا : لقد افرطت فى الحلم حتى خفت أن يعد ذلك منك ضعفا وجبنا ، فقال معاوية أى بنى إنه لايكون مع الحلم ندامة ولامذمة فامض لشأنك ودعنى لرأيي.

ونعتقد بهذا المشهد المثير الذى أورده لنا ابن طباطبا فى كتابه الفخرى ، يكون معاوية قد بلغ شأواً كبيرا فى مضمار الدبلوماسية ، فعلى الرغم من أنه الحاكم ورئيس الدولة ، والذى كان بمقدوره أن يعنف الصبى ووالده أو يودعهما السجن ، نراه يضع يده على وجهه ويطلب من الصبى تنفيذ وصية أبيه بضربه ولكن برفق .

وبذلك يكون معاوية قد حرص على حسن العلاقة بين الصبى وأبيه بما يقارب من وجهات النظر بين رعيته ، هذا فضلاً عن كسبه ود وولاء

الصبى ، ولا أدل على ذلك من استحياء الصبى أن يفعل ماكلفه به ابوه ، فألقى الدنانير على الأرض وعندئذ ضاعفها له معاوية .

ويذكر السيوطى أن زياد بن أبيه قد استعمل رجلاً على إحدى المدن فكثر خراجه ، ومن هنا خشى هذا الرجل أن يعاقبه زياد ففر إلى معاوية ، وحينذاك كتب زياد إلى معاوية قائلا " إن هذا أدب سوء لمن قبلى "(١٣) فكتب إليه معاوية قوله :" إنه ليس ينبغى لى ولا لك أن نسوس الناس بسياسة واحدة أن نلين جميعاً فتمرح الناس فى المعصية ، أو نشتد جميعاً فنحمل الناس على المهالك ، ولكن تكون للشدة والفظاظة ، وأكون للين والرأفة " (١٤)

وبهذه المواقف المرنة الراقية يكون معاوية بن أبى سفيان ، قد أثبت للتاريخ مدى وعيه بعلم وفن الدبلوماسية ، وما تتصف به من حساسية شديدة ؛ ولا أدل على ذلك من تشبيهه للعلاقة بينه وبين الناس بالشعرة ، فهى على ضعفها الواضح تعبر عما يجب أن تكون عليه العلاقات الدبلوماسية من قوة ودقة وحساسية .

حقا لقد كان معاوية كما يقول (ابن طباطبا) عاقلا حليما جيد السياسة ، يحلم فى موضع الحلم ، ويشتد فى موضع الشده ، إلا أن الحلم كان عليه أغلب (١٥)

نخلص مما تقدم إلي نتيجة مهمة ، وهى أن الفكر العربى الإسلامى فى مجال الدبلوماسية ، كان سباقا للفكر الأوربى بما يدحض رأى الحاقدين والمتعصبين من المستشرقين ، وغيرهم ، الذين يغفلون عن قصد أو جهل

الدور الاسلامى المتميز فى هذا المجال ، وسوف يتضح ذلك بجلاء عند حديثنا عن التطور التاريخى للفكر الدبلوماسى .

ننتقل الآن إلى علماء الغرب لنتعرف آراءهم فى الدبلوماسية ، فأرنست ساتو satow يقول عنها " إنها استعمال الذكاء والكياسة فى إدارة العلاقات الرسمية بين حكومات الدول المستقلة " (١٦). مما يوضح بعض الصفات التى يجب أن يكون عليها المبعوث الدبلوماسى من ذكاء وكياسة فى تصرفاته .

ويقول شارل دى مارتنيس deMartens إنهــا " علم العلاقات الخارجية أو الشئون الخارجية للدول ، وبمعنى أخص هى علم أو فن المفاوضات "(١٧)مما يؤكد أن الدبلوماسية علم وفن لها أصولها وقواعدها وأساليبها الخاصة .

ويقول شارل كالفو charles calvo " إنها علم العلاقات القائمة بين مختلف الدول ، والناتجة عن المصالح المتبادلة وعن مبادئ القانون الدولى العام ونصوص المعاهدات والاتفاقات "(١٨) ممايؤكد لنا حتمية وجود العلاقات الدبلوماسية بين الدول .

ويقول براديبه فودريه fodere إنها فن تمثيل الحكومة ومصلحة الدولة قبل الحكومات والدول الأجنبية ، ومراقبة حقوق الوطن ومصلحته وكرامته حتى لاتمس فى الخارج ، وكذلك إدارة الشئون الدولية وإدارة المفاوضات السياسية أو تتبعها وفقا للتعليمات الصادرة بشأنها (١٩)

وهنا يؤكد براديبه على أهمية الدبلوماسية فى المحافظة على مصلحة الدولة ، وصون كرامتها لدى الدول الأخرى ، ممايبرز الدور المهم للدبلوماسية فى إدارة العلاقات الدولية ،فتتسع بذلك الهوة بين البلاد وشبح الحروب المدمرة .

ويقول أيضاً انتو كوليتز Anto Koletz إنها مجموعة " المعرفة والفن اللازمين من أجل تسيير العلاقات الخارجية للدول بشكل صائب "(٢٠).

كما يصفها هارولد نيكولسون بأنها " توجيه العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات ، أو طريقة معالجة وإدارة هذه العلاقات بوساطة السفراء والممثلين الدبلوماسيين ، فهى عمل وفن الدبلوماسى "(٢١).

ثم يأتى فيليب كاييه cahier قائلا إنها " الوسيلة التى يتبعها أحد أشخاص القانون الدولى لتسيير الشئون الخارجية بالوسائل السلمية وخاصة من خلال المفاوضات "(٢٢).

كما ذكر بانيكار أنها فى علاقتها بالسياسة الدولية هى فن تقديم مصالح الدولة على مصالح الأخرى . ويضيف قوله والدبلوماسية الحكيمة هى التى تستخدم مزيجاً من (الساما ، والداندا ، والبهبدا)

وتعنى الأولى : الاتجاه العام من الصداقة والاقناع ، وطريقة النقاش المؤدب ، والاتصال القائم على المنطق والمصلحة .

وتعنى الثانية : التهديد والقوة ، وتشمل الاتفاقات التى تنطوى على خسارة وتحديد بعض المصالح والانسحاب ومنح شيئ فى مقابل تحقيق الأهداف ، كما تعنى الثالثة : قطع العلاقات واستعمال الخشونة .(٢٣)

ويستفاد من كلام بانيكار التدرج فى استخدام الدبلوماسية ؛ فتبدأ المفاوضات حول المشكلة بالمنطق والاقناع للحفاظ على المصلحة ، ثم التلويح بالتهديد وامكانية التنازل عن شيئ فى مقابل تحقيق الأهداف ، وإن لم يحدث تقدم فى حل المشكلة تقطع العلاقات وتستعمل الخشونه ، وكل هذا يؤدى فى النهاية إلى مرحلة واحدة وأخيرة وهى (داترا) أى الحرب كملجأ وملاذ أخير .

وهذا على عكس الدبلوماسية الإسلامية التى تبذل قصارى جهدها لمنع الحرب ، وليس الوصول إليها .

كذلك لم يفت بعض الموسوعات الأدبية والاجتماعية أن تعرف الدبلوماسية ، فتقول عنها موسوعة (اللترية) إنها معرفة العلاقات الدولية، ومعرفة المصالح المتبادلة بين الدول .(٢٤) كما تذكرها موسوعة العلوم الاجتماعية بقولها ، إنها الأسلوب الشائع اليوم للاتصال بين الحكومات.(٢٥) وقالت عنها دائرة المعارف البريطانية ، إنها فن إدارة المفاوضات الدولية .(٢٦) وأخيرا قالت عنها دائرة المعارف الأمريكية إنها تشمل الإجراءات المتنامية لقبول التفاوض بين الدول ذات السيادة .(٢٧)

بقى أن نقول : لقد اتضح من خلال ماتقدم من تعريفات متنحية أو مسهبة للدبلوماسية ، إنها علم وفن فى آن واحد لتسيير العلاقات الدولية وتنظيم التعامل بين الدول بعضها والبعض الآخر ، كما أنها توجه معبر يمهد لعقد المعاهدات وإبرام الاتفاقات وتدبير الحلول للمشكلات ، بما يعود بالنفع على بلدان العالم ، فهى إذن علم وفن يتم توظيفه لتسيير علاقات

الدول وخدمة مصالحها ، فى محاولة لتحقيق الاستقرار والرخاء والرفاهية ، وهى غايات تمثل آمالا عراضاً للشعوب تسعى جاهدة لتحقيقها

وقبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى ، نقر حقيقة مهمة نتجت من استقراء آراء علماء الغرب وموسوعاتهم ودوائر معارفهم عن الدبلوماسية كما أسلفنا وهى : مدى التقارب الشديد بين ماذكروه ، وماقاله معاوية من قبل ، ممايؤكد ماذهبنا إليه من سبق العرب للأوربيين فى هذا المجال ، وإن لم يذكروه مجانبين بذلك للحقيقة الواضحة .

حواشى المدخل

****

(1) Encyclopedia Americana art Diplomacy.

نيكولسون :

الدبلوماسية ، ص ٥٣ ترجمة محمد مختار الزقزوقى مكتبة الانجلو القاهرة ط١ ١٩٥٧م .

فوده (عز الدين) :

النظم الدبلوماسية ، ص ٤٧ ط ٢ ، القاهرة ١٩٨٩م

(٢) أبوهيف (على صادق) :

القانون الدبلوماسى ، ص ١٦ ، الإسكندرية ١٩٧٥م

خلف (محمود): النظرية والممارسة الدبلوماسية،ص٤٥، بيروت ١٩٨٩م .

(٣) فوده (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(4) Encyclopedia Americana art Diplomacy .

فودة (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٥) نيكولسون :

المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(6) Encyclopedia Americana, art, Diplomacy.

عز الدين فوده : المرجع السابق ٤٨ – ٤٩ .

(٧) ابن قتيبه : ت ٢٧٦هـ (أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينورى)

المختار من عيون الأخبار ، ص ١٢، القاهرة ١٩٦٠ م.

ابن عبدربه : ت ٣٢٨هـ (شهاب الدين أحمد المعروف بأبن عبدربه الاندلسى)

العقد الفريد ، جـ ١ ، ص ١٨ دار الفكر للطباعة والنشر بيروت – لبنان –

تحقيق محمد سعيد العريان .

(٨) اليعقوبى : ت ٢٨٢هـ (أحمد بن واضح اليعقوبى)

تاريخ اليعقوبى ، المجلد الثانى ، ص ٢١٦ بيروت دار صادر ١٩٦٠م.

(٩) اليعقوبى :

المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٧ .

(١٠) اليعقوبى :

نفس المصدر والمجلد والصفحة .

(١١) ابن طباطبا : (محمد بن على بن طباطبا)

الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ١٠٥ بيروت ١٩٨٠م .

(١٢) ابن طباطبا :

نفس المصدر والصفحة .

(١٣) السيوطى : ت ٩١١هـ (جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر السيوطى)

تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٢ الطبعة الثانية ، القاهره ١٩٦٤م .

(١٤) السيوطى :

نفس المصدر والصفحة ٠

(١٥) ابن طباطبا :

المصدر السابق ، ص ١٠٤ ٠

16) Sir Ernest satwo . Aguide to diplomatic practice. Edited by sir Neville Bland. Fourth Edition London , 1957, P.1 .

(١٧) فودة (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ٥٠ ٠

18) Charles Calvo, Dictionnarie de Droit . international public et prive, Paris 1885, Tomel, 1, p. 250 .

(19) Pradier - Fodere , Cours de Droit Diplomatique Paris , 1899 Tome I p. 2 .

(٢٠) خلف (محمود) :

المرجع السابق ، ص ٤٧ ، بيروت لبنان ط ١ ، ١٩٨٩م ،

(٢١) نيكولسون :

المرجع السابق ، ص ٤٥ ٠

(٢٢) خلف (محمود):

المرجع السابق ، ص٤٧ – ٤٨ ٠

(٢٣) شلبى (رؤوف) :

اتجهات فى دبلوماسية الدعوة الإسلامية ، ص ٤٥، ٤٦، القاهرة ١٩٨٥م .

(24) Elittre, Dictionnaire dela langue francaise vol, 11. P. 1170 .

(25) Encyclopaedia of social sciences 1948 , vol, V-V,1 p.947.

(26) Encytlopaedia Britannica art Diplomacy, 1947, vol, V,II .

(27) Encyclopaedia Americana art Diplomacy . .

****

الباب الأول

التطور التاريخي للفكر الدبلوماسي

******

تمهيد

الفصل الأول :

الفكر الدبلوماسي لدى المجتمعات القديمة.

الفصل الثاني :

الفكر الدبلوماسي لدى مجتمع العصور الوسطى

(الدولة البيزنطية – الدولة الاسلامية الناشئة)

*****

تمهيد :

لاشك أن الفكر الدبلوماسى قديم قد الإنسان ذاته ، فهو سلوك فطرى اجتماعى ملازم له ، نشأ بنشأته ، ونما بنموه ، وتطوربتطور أحواله المعيشية .

ومن هنا فليس من الضرورى أن نغوص فى أعماق التاريخ كثيراً ،حتى نعرف أن المجتمعات الإنسانية الأولى منذ نشأتها على ظهر البسيطة ، كان لابد لها من البحث عن ضرورات حياتها ، وأسباب بقائها ، وعوامل قوتها .

وبالتالى فقد وجد لديها الشعور ولو بدرجات متفاوته لإقامة علاقات بين شخوصها ؛ إما لتبادل مايفيض عن حاجة البعض منها ، وإما للاتفاق فيما بينها على طريقة تنظيمية لاستغلال الثروات الطبيعية من صيد وقنص ورعى وما إلى ذلك من الضرورات الحياتية ، وإما ولو من باب الفضول للتعرف على مجتمعات أخرى جديدة .

وعلى ضوء ذلك فلو نظرنا إلى ذاكرة التاريخ نظرة سريعة ، لرأيناها قد حفظت لنا معرفة المجتمعات البدائية الأولى للحرب والسلم ، وإجراءات الصلح والاتفاقات ، ومراسم الاحتفالات السياسية والدينية ،

والاتصالات ، والمعاهدات التجارية ، ومراسم التهانى والتعازى عند تولية زعيم جديد أو موت آخر .

ويعمق (نيكولسون) هذا الاتجاه قائلا " لابد وأن ثمة لحظات رغبت فيها جماعة همجية فى التفاوض مع جماعة همجية أخرى ، ولو من أجل الإعراب عن الاكتفاء بما حدث فى معارك اليوم ، وأنهم يتطلعون الى هدنة يجمعون فيها الجرحى ويدفنون الموتى "(١).

ويستطرد قائلا " ومنذ القدم حتى إلى عهد أجدادنا الذين ينسبون الى كرومانيون cromagnon وإلى نياندرتالNeanderthal ، كان يتضح بالضرورة أن مثل تلك المفاوضات كانت تعرقل ...لو أن أحد الطرفين قتل رسول الطرف الثانى ، وأكله قبل أن يتمكن من تسليم رسالته ، ولذا فلابد وأن الممارسة قد أقرت حتى فى أقدم العصور "(٢).

مما يؤكد وجود الممارسات الدبلوماسية منذ القدم ، حتى بين الجماعات الهمجية التى لاتحتكم إلى قانون ينظم حياتها .

وبناء على ماتقدم فقد لزم وجود شخص أو أشخاص للقيام بمثل هذه المهام السالفة الذكر ، وهم مايطلق عليهم السفراء أو الرسل أو المبعوثين الدبلوماسيين ، لنقل وجهة نظر رؤسائهم وآمال شعوبهم إلى الأقوام الأخرى ، وكذلك نقل وجهة نظر الآخرين إلى رؤسائهم وبلادهم .

عندئذ نشأ مايعرف بالفكر الدبلوماسى والممارسة الدبلوماسية ، لأن المبعوث الأول قد جمع بين صفتين أساسيتين من صفات الدبلوماسية ،

وهما : التمثيل والمفاوضة ، التمثيل لرئيسه وشعبه ، والمفاوضة من أجل مصالحهم .

وهكذا كانت الدبلوماسية كما أسلفنا سلوكاً فطرياً اجتماعياً ، لازم الإنسان منذ ظهوره ، فنشأ معه ، ونما بنموه ، وتتطور بتطور أنماط حياته

ومما تجدر الإشارة إليه أن السفارات والرسل فى المجتمع البدائى الأول ، لم تكن وقفا على الرجال فحسب ، وإنما شاركت فيها النساء أيضا. ولعل خير مثال على ذلك (القبائل الاسترالية) التى كان على رجالها الصيد والقتال ، بينما كان على نسائها : الزراعة والمفاوضة ، المفاوضة من أجل إنهاء المنازعات التى قد تنشب بين القبائل ، لآن الاستراليين القدماء اعتقدوا فى مدى قدرة النساء وتأثيرهن فى إنهاء مثل هذه المنازعات (٣) .

وربما مايوجد اليوم فى عالمنا المعاصر من قيام بعض الدول ، بتعيين سفرائها من النساء يكون الأصل فيه ما أسلفناه الآن .

وبعد هذا التمهيد المتواضع نعرض صورة موجزة ، عن بعض الممارسات الدبلوماسية عبر التاريخ ، وصولاً إلى العصر العباسى موضوع بحثنا ، لنبرز من خلالها الدور الحضارى الرائد للدبلوماسية الإسلامية .

وتشمل هذه الصورة الفكر الدبلوماسى لدى كل من : المجتمعات القديمة (الفرعونية ، والمدنيات الآسيوية ، والإغريق ، والرومان)، ثم البيزنطيون ، وأخيراً العرب .

الفصل الأول

الفكر الدبلوماسى لدى المجتمعات القديمة .

قبل الحديث عن الفكر الدبلوماسي لدى المجتمعات القديمة ، نرى أنه قمين بنا أن نذكر مجموعة قوانين حمورابي ملك بابل ، التى نقشت على أسطوانه من حجر الديوريت حوالى عام ١٧٠٠ ق.م ، لنتلمس منها شيئا عن الدبلوماسية .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن هذه المجموعة قد حفظت لنا بعض العلاقات الدولية فى منطقة بلاد مابين النهرين ؛ كالاتفاق على إنهاء النزاع الحدودى بين مدينتى Unno,Lagash من جانب ، ومدينة شط الحى إحدى مدن بابل من جانب آخر ، وذلك عام ٢٨٥٠ق.م. كما حفظت لنا توقيع معاهدة بين أحد ملوك العهد الأكادى (ناران سن) ، وأمراء(Avan) الدولة التابعة حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م.(٤).

وهكذا أكدت لنا هذه المجموعة وجود العلاقات الدبلوماسية فى المجتمع القديم ومنذ زمن سحيق .

ننتقل بعد ذلك إلى العصر الفرعونى وعنه نقول :-

الفكر الدبلوماسي لدى الفراعنة .

قبل الحديث عن الفكر الدبلوماسي لدى الفراعنه ، يجب أن نلفت الانتباه إلى أننا لم نستعرض فى هذه الجزئية تاريخ العصر الفرعونى ، لأن

ذلك يتطلب مئات المجلدات فضلا عن خروج البحث عن مساره الطبيعى ، وعلى هذا فسوف نمس مساً خفيفاً بعض العلاقات الدبلوماسية بين مصر وجيرانها فى ذلك العصر .

ومما تجدر الإشارة إليه أن مصر كانت أقوى دولة فى الشرق القديم وأكبر ممالكه ، وأكثرها حضارة وازدهارا ، لاسيما فى عهد الأسرات من الثامنة عشرة حتى العشرون .

وعلى ضوء ذلك فقد امتدت حدودها لتشمل الفرات وجبال طوروس وفينيقيا وفلسطين .

وعندئذ دخلت مصر مع كل من مملكة كريت وجذر بحر إيجه وغيرهما فى علاقات تجارية وثقافيه متعددة ، كما امتد نفوذها إلى معظم دول الشرق القديم .

وانطلاقاً من هذا الوضع المتميز لمصر فقد حاولت بعض الدول أن تخطب ودها ، وبالفعل فقد تبودل فى هذا الشأن عدد من الرسائل ، لعل

أشهرها رسائل تل العمارنة *(اختاتون) التى عثر عليها بتلك المدينة عام ١٨٨٧م.

وما من شك فإن هذه الرسائل قد كشفت جانباً مهماً من علاقات مصر الودية بجيرانها المعاصرين ؛ كملكة بابل ، وآشور ، ومتنى ، وآلاشياء(قبرص)، وبلاد ختيا (الحثيون) وغيرها من البلدان .

فتذكر إحداها أن (بورابورياش الثانى) ملك بابل قد ارسل إلى فرعون مصر (امنحوتب الثالث) يذكره بحسن العلاقة التى كانت بين والداهما ، والتى تجلت فيما أرسل من هدايا ذهبية إلى بابل من جانب مصر.

---

*تل العمارنة :

هذا المكان كان يسمى فى الأصل (التل) ، وهو قرية صغيرة ، بيد أن علماء الأثار أطلقوا عليه : تل العمارنة نسبة للقبيلة العربية التى سكنت هذه القرية وهى بنى عمران .

وقال السويدى فى كتابه (سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب) : آل عمران : بطن من ثعلبة من طيئ منازلهم مشارق الديار المصرية ومغارب الديار الشامية . راجع :

١- السويدى : محمد أمين البغدادى ، سبائك الذهب ص ٢٧٤ دار الكتب العلمية . بيروت / لبنان

٢- هامش كتاب (مصر القديمة) لسليم حسن حـ ٥ ص ٣٤٦ . دار الكتب القاهرة ١٩٤٨م

وتشير ثانية ؛ إلى العلاقات الودية بين الملك البابلى (كادشمان أنليل الأول) ، وامنحوتب الثالث فرعون مصر ، يؤيد ذلك شكاية الأول إلى الثانى قلة هداياه ، وتضاؤل مستواها بالنسبة لما أرسل لوالده من قبل.

وتكشف ثالثة ؛ عن عتاب رقيق من (بورابورياش الثانى)ملك بابل الى امنحوتب الرابع فرعون مصر ؛ لعدم سؤال الثانى عن الأول أثناء مرضه إذ قال لرسول أمنجوتب " ألم يسمع أخى بأنى كنت مريضا ؟ لماذا لم يواسينى "، وهنا تظهر براعة رسول امنحوتب الرابع حين قال للملك البابلى

" إن الطريق ليست قصيرة ، وإذا كان أخوك قد سمع فإنه لابد كان يرسل إليك التحيات ، والطريق لأخى بعيدة فمن ذا الذى كان قد بلغه حتى يرسل إليك بسرعة تحياته "(٥).

وتذكر رابعة زواج الفرعون أمنحوتب الثالث من أخت (كادشمان أنليل الأول) ملك بابل ، بالإضافة إلى زواج الفرعون نفسه من ابنة الملك المذكور أنفا ، وبذلك يكون الفرعون قد جمع بين الفتاه وعمتها .

كما تشير خامسة إلى أن (بورابورياش الثانى) ملك بابل ، قد أرسل إلى (اخناتون) فرعون مصر مطمئناً إياه ومؤكداً له إرساله أميرة بابلية زوجاً له بدلاً من الأميرة المتوفاه .

وتذكر سادسة الهدية التى أرسلها (بورابورياش الثانى) مع ابنته الأميرة بمثابة مهر لأمنحوتب الرابع ، كما توضح رسالة أخرى قائمة الهدايا التى ارسلها فرعون مصر صداقاً لإبنة الملك البابلى .(٦)

هذا وقد بينت إحدى الرسائل أنواع الهدايا التى كانت ترسل من بابل إلى مصر ؛ وتشمل : الفضة ، واللازورد ، والمواد الخشبية المموهة بالذهب ، والزيت ، والعربات ، والخيل ، والعبيد وغير ذلك .(٧)

وهكذا رأينا كيف كانت علاقات مصر الدبلوماسية بمملكة بابل ، وكيف تعددت جوانبها .

أما عن علاقة مصر الدبلوماسية بمملكة آشور فتذكر إحدى رسائل تل العمارنة أن (آشور نادين – آخى) جد (آشورو – باالليت الأول) ،قد راسل فرعون مصر أمنحوتب الرابع ، فأهداه الفرعون عشرون (تلنتا) من الذهب ، ومن هنا فقد تطلع آشورو إلى أن يهدى بمثلها .

كما تذكر الرسائل أيضاً أن (آشورو – باالليت) قد بعث إلى فرعون مصر برسله ، معهم العربات والجياد واللازورد ، ورد عليه الفرعون ببعض الهدايا التى لم تحز رضاه ، فطلب عندئذ إلى الفرعون أن يغدق عليه بأحسن منها .(٨)

وعن علاقة مصر بمملكة " متنى " الواقعة على نهر الفرات ، فتذكر رسائل تل العمارنة أن تحتمس الرابع فرعون مصر قد تزوج من إبنة " دوشرتا " ملك " متنى " كما زوج الملك المتنى " شوتارنا " ابنته "

تدوخيبا " من الفرعون أمنحوتب الثالث ، وبعد وفاته زوجها والدها من الفرعون امنحوتب الرابع .

وتذكر الرسائل أيضاً أن " دوشرتا " ملك " متنى " قد بعث بخطاب إلى أرملة الفرعون أمنحوتب الثالث ، وربما كان يحمل هذا الخطاب عبارات التعازى لأرملة الفرعون الراحل ، مما يؤكد وجود العلاقات الودية الدبلوماسية بين الطرفين .(٩)

أما عن علاقة مصر الودية بمملكه قبرص " آلاشيا " فتذكر رسائل تل العمارنة أن قبرص كانت تقدم لمصر بعض الهدايا من النحاس والصاج وخشب الصناديق ، وقد تراوح حجم هذه الهدايا من النحاس مابين مائة وخمسمائة تلنتا .

وممايذكر أنه فى آخر مرة من هذه الهدايا اعتذر ملك قبرص لفرعون مصر ، عن ضآلة حجم ما أرسله من النحاس ، وذلك لأن: إله الموت " ترجال " قد قضى على العمال فى بلاده .

كما تذكر الرسائل أيضاً أن إخناتون فرعون مصر حينما أرسل إلى ملك قبرص معاتبا إياه ، على عدم إرساله رسولاً لتهنئته ؛ كتب إليه الملك القبرصى معتذراً بأنه لم يعلم بموعد حفل تنصيبه ، لذلك فهو يرجوه المعذرة ، والتجاوز عن هذه الهفوة البسيطة بحيث لاتترك أى أثر على العلاقة بينهما . ولكى يثبت الملك حسن نيته أرسل إلى الفرعون رسولاً محملاً بهداياه طالباً منه أن يرد الرسول بخيرات بلاده .(١٠)

هذا ولم تكن العلاقة بين مصر وقبرص وقفاً على رئيسى البلدين ، وإنما تعدت ذلك إلى الوزراء ؛ إذ كتب وزير قبرص إلى وزير مصر طالباًإليه تبادل السلع ، كما التمس منه أن يفك أسر سفينه بركابها كانت محتجزة لأنها ملك العاهل القبرصي .

وإذا ماعرجنا على العلاقة بين مصر ومملكة خيتا " الحيثيون " لرأينا كما تذكر رسائل تل العمارنة أن " خاتوسيل الثانى " ملك خيتا كتب لفرعون مصر أمنحوتب الرابع يخطب وده ، ويطلب منه تجديد العلاقة التى كانت بينيي البلدين .

وعلى صعيد آخر فقد أوضحت معاهدة قادش التى عقدت بين ملك الحيثيين " خيتا " خاتوسيل الثالث ، وفرعون مصر رمسيس الثانى عام ١٢٧٨ق.م مبدءً مهما فى توازن القوى بين الدولتين كقوتين عالميتين آنذاك؛ إذ اتفق الطرفان على نبذ القتال فيما بينهما ، ليتمكنا من درء خطر آشور المشترك الذى تهدد بلادهما . وفى هذه المعاهدة دعوة للسلم والإخاء والموادعة ، وتحقيق لمبدأ توازن القوى بين البلدين .(١١)

وهكذا رأينا من خلال ماتقدم كيف تعددت جوانب العلاقات الودية الدبلوماسية بين كل من مصر ومملكة بابل وآشور ومتنى وخيتا ، وكيف تنوعت بين الهدايا والزواج والاتفاق على درء الأخطار ، فهى دبلوماسية شاملة لتعدد اتجاهاتها .

المدنيات الآسيوية القديمة والفكر الدبلوماسي .

تعد الصين والهند من أبرز المدنيات الآسيوية القديمة التى عرفت الفكر الدبلوماسي ؛ فها هو " كوانج شينج " أحد فلاسفة الصين القدماء يرى أنه لايجد مبرراً لنشوب القتال والحروب بين الناس رغم عدم تشككه فى حدوثها ، كما كان يفضل من وجهة نظره سياسة مزج الحرب بالدبلوماسية لتنفيذ المصالح الخارجية للدولة ، وفى سبيل ذلك دعى لاهتمام الدولة بالوسائل السلمية قدر الجهد والطاقة ، كما كان يحبذ أن تنفق الدولة ثلثى ميزانيتها على الاتصالات والبعثات الدبلوماسية ، خيرا من انفاقها على حشد القوات للحروب .

ومما يذكر أن قدماء الصين كانت لهم قواعد معينة فى تبادل المبعوثين الدبلوماسيين ، ومراسم إستقبالهم ، وفى المعلومات التى كانت تبلغ لسفرائها فى الخارج ، ممايدل على نضج الوعى الدبلوماسى لدى قدماء الصين .

أما الهند فقد تأثرت دبلوماسيتها بالعقيدة " البرهمية " التى رمت الغريب بنظرة عدائية ، لذلك قام مبعوثيها سواء إلى الملوك المحليين أم إلى الأجانب بالتجسس لصالح بلدهم ، ومما يذكر أنه كان هناك من يقترف هذا العمل بصورة علنية ، ومن كان يقترفه بصورة مستترة تحت عباءة التجارة، متجسساً من خلالها على الأسرار العسكرية وغيرها من المعلومات الأخرى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن تجسس سفراء الهند على البلدان التى يبعثون إليها كانت تتم وفق تعليمات وقواعد دينية عرفت باسم (-Artha Sastras) (١٢).

الإغريق والفكر الدبلوماسى

لقد مر الفكر الدبلوماسى لدى الإغريق بمراحل ثلاث هى : مرحلة المنادين ، ومرحلة الخطباء ، ومرحلة ازدهار المدنية الإغريقية .

أما المنادون : فهم حملة الأعلام البيضاء الذين اتشحوا برداء الدين ووضعوا تحت حماية الإله (هرمس) *إله السحر والمكر والخديعة والحيلة .والذى كان يقوم فى زعمهم بدور الوسيط بين العالمين العلوى والسفلى .

وفى هذا يقول نيكولسون " إن الإله (هرمس) كان عند القدماء رمز السحر والحيلة والمكر ؛ وآية ذلك أنه سرق فى يوم ولادته خمسين رأساً من البقر من أخيه أبوللو Apollo ، وحينذاك

---

* هرمس :

اسم اطلقه اليونان على الإله (تحوت) وسماه الأفلاطونيون المحدثون هرمس مثلث العظمة .

الحفنى (عبدالمنعم) المعجم الفلسفى ص ٣٦٧ الدار الشرقية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م

وقد أخفى الماشية فى مغارة عاد لينام فى مهده والسلام ملء جفونه "(١٣)

ولقد أعجب زيوس zeus أيما اعجاب بسعة حيلته ، ومن ثم اصطفاه لأدق بعثاته الدبلوماسية وأرقها ومن بينها اغتيال آرجوس Argos.

ويستطرد نيكولسون قائلا " لقد اعتبر الاغريق هرمس الراعى الرحيم الذى لايهاب للمسافرين الظاعنين والتجار فى بيعهم وشرائهم وتبادلهم ، واللصوص السارقين " . ويضيف قوله " وهو الذى وهب باندورا pandora أولى إمرأة الملق والخداع ".(١٤)

وهكذا نرى الفكر الدبلوماسى الاغريقى من خلال تلك الأسطوره ، قد ارتبط فى مراحله الأولى بالمكر والخداع والسرقة التى تجسدت فى الإله هرمس راعى اللصوص والمجرمين ، وحامى الأفاقين والمخادعين .

بل ويضيف نيكولسون قوله :" إن المنادين قد أخذوا عن هرمس علو الصوت ، وقوة الذاكرة ، ولقد أصبح هرمس الواسطة بين السماوات العلى والأراضى الدنيا ، وعلى الرغم مما كان يتمتع به هرمس من حب كبير ، إلا أنه لم يكن موضع تبجيل واحترام لدى الدبلوماسيين الذين أسفوا فيما بعد على اختيار هرمس ، ولم يقع هذا الاختيار على إله أقل منه ذكاءاً وأكثر اهلية للثقة والاعتماد عليه ليكون رمزا لهم ".(١٥)

وهنا تأكيد لخطورة اعتماد الدبلوماسيين على هرمس وفكره الذى لايدعو إلى الفضيلة بل كله رذائل ، والأشد خطورة من هذا أن الدبلوماسيين المنادين لم يكونوا الوكلاء المعتمدين للتفاوض فحسب ، بل كانوا أيضاً مسئولين عن ادارة القصر الملكى ، والمحافظة على النظام فى الاجتماعات ، واجراء بعض الشعائر الدينية الخاصة .

أى أن المظاهر السيئة لم تبق فى ذهن الدبلوماسيين المنادين ، بل انتقلت إلى الحكومة والناس لتصبح ظاهرة اجتماعية لها خطورتها .

وأما الخطباء الدبلوماسيون : فقد ارتبط ظهورهم بمتطلبات العصر ، لأن المدنية فى بلاد الاغريق أخذت فى التطور ، فازداد لذلك الارتباط بين المدن بعضها والبعض ، ومن هنا تطلبت المفاوضات والاتصالات مستو أرفع من سابقه ، فكان عندئذ اختيار السفراء من بين الخطباء والحكماء والفلاسفة بدلاً من المنادين لمواكبة هذا التطور الذى حدث فى القرن السادس قبل الميلاد .

لأن الصوت الجهورى وقوة الذاكرة لم يصبحا بعد هما آليات التفاوض ، فى الوقت الذى تشابكت فيه المصالح التجارية والعلاقات السياسية بين مختلف الولايات الاغريقية وغيرها ، بل كان لابد من وجود أبلغ الخطباء ، وأبرع المحامين على رأس الدبلوماسيين للدفاع عن قضايا وطنهم أمام الجمعية الشعبية لجامعات الدويلات Leagues أو أمام المدن الأجنبية .(١٦) لأن واجبهم لم يكن تحصيل المعلومات عن البلدان التى

يزورونها أو كتابة تقرير عنها ، وإنما كان المطلوب منهم إلقاء خطب بليغة ذات تاثير على سامعيهم ،أى إجادة عرض قضايا بلادهم .

تلك مرحلة ثانية وأما مرحلة ازدهار المدنية الاغريقية ؛ فقد صاحبها تقدم ملحوظ فى وسائل المواصلات ، وازدياد مطرد فى العلاقات التجارية والسياسية ، فتعددت لذلك البعثات حتى اقتربت من التمثيل شبه الدائم والمنتظم .

وهكذا رأينا مدى اعتماد الفكر الدبلوماسى الإغريقى فى نشأته على اسطورة (هرمس) ، بادئا بالمنادين الذين إتشحوا بالكذب والنفاق والخديعة ، ثم كانت مرحلة الخطباء الذين تطلبتهم مرحلة التقدم ، ثم كان التمثيل شبه الدائم بعد ازدهار المدنية الاغريقية ورقيها .

وعلى الرغم من اعتماد الفكر الدبلوماسى الاغريقى كما رأينا على اسطورة (هرمس) وما صاحبها من سمات سيئة ، إلا اننا نذكر للإغريق بعض الرقى الملحوظ فى فكرهم الدبلوماسى والذى أكده مؤتمر اسبرطة عام ٤٣٢ق.م ،إذ دعت اسبرطة فى ذلك العام حلفاءها إلى مؤتمر لتقرير موقفهم من أهل أثينا الذين تجاوزوا حدودهم ، وبالتالى ينبغى عليهم عقابهم.

وبعد اتخاذ بعض الاجراءات التنظيمية تحدثت وفود ميجارا وكورنثا وألقت الخطب المطولة ، ثم بدأت المداولة وبدأ الاقتراع بالحرب الذى طلب من الحاضرين التصويت عليه .

وفى تلك الأثناء كان هناك باسبرطة وفد من اثينا فى مهمه خاصة تتصل بالتجارة ، وعلى الرغم من عدم دعوة هذا الوفد لحضور المؤتمر ؛ إلا أنه قد سمح لأعضائه بالحضور وسماع جانب من المناقشات ، وأجيز له الإشتراك فى هذه المناقشات ، وحتى عندما صوت الحاضرون بالحرب ضد أثينا فقد سمح للوف بالبقاء للانتهاء من مهمته التى جاء من أجلها(١٧)

ومما يذكر للاغريق أيضاً أنهم عرفوا عدداً من الأساليب التى مرت بها دبلوماسيتهم ، عرفوا التصالح re con ciliation لوقف القتال ، وعرفوا الاتفاق arrangement بمعنى الهدنة ، وعرفوا التقارب compact ، وعقد الاتفاق التام convention ، وأيضا التحالف alliance كما ميزوا المعاهدات التجاريةcommercial treaty باسم خاص.

ومما يذكر للاغريق أيضاً ان سفيرهم أو مبعوثهم لم يكن مجرد رسول سريع العدو أو جهورى الصوت ، كما تمثلوه فى الالياذة فى شخص odysseus وphoenix وAjax الذين تقدموا لعرض الصلح على اخيلوس ، أو كما تخيلوه فى الأودسه فى شخص Ulysses بطل طرواده الذى قام بدور السفير فى المواقف الصعبة .

ولكنه أصبح يختار من بين كبار الموظفين أو المحاربين أو الخطباء والشعراء والممثلين الذين كانوا يسمونهم الشيوخ elders لوقارهم، أو لمعرفتهم بالحكمة والفصاحة ، وقوة البيان .

ويذكر أن الممثل Aes chines وقع عليه الاختيار ليمثل أثينا فى مقدونيا ، كما وقع الاختيار على الموسيقار Menecles لتمثيل مدينة ثيوس

Theos لدى مدينة مجاورة ، فاستقبل بالترحاب وخاصة انه كان يقوم بالغناء أثناء سفارته عازفاً على قيثارته فى الميادين العامة .(١٨)

الفكر الدبلوماسى عند الرومان .

كلنا يعرف أن الرومان خلفوا اليونان تاريخياً ، وبالتالى فقد ورثوا تركة اليونان من تراث فكرى وثقافى ، ومن مجد سياسى وفكر دبلوماسى .

ولكن على الرغم من نجاح الرومان بعد تاريخهم الطويل ، فى خلق تراث ثقافى وقانونى وعسكرى ، إلا أنهم أخفقوا فى ترك مثل هذا الشيئ بالنسبة للفكر الدبلوماسى ، إذ لم تظهر مساهماتهم فى ميدان الصلات الدبلوماسية إلا فى ربط غيرهم بهم من الأمم المقهورة على نفسها أو سواها ، وإنشاء بعض العلاقات مع الدول المستقلة عن طريق عقد المعاهدات والمواثيق .

والقضية التى اعتنت بها الامبراطورية الرومانية هى السلام الرومانى pax Romane أى سلام روما أراضيها وثرواتها ، وذلك على حساب الآخرين ، ومن المعروف أن الرومان كانوا يمجدون القوة ويرفعون من شأنها على حساب الأساليب الدبلوماسية لطبيعتهم العسكرية التى جعلتهم يعتزون بأنفسهم ، وبعقيدتهم وحدهم theirown good faith على غيرهم من الشعوب .

وبناءا على ذلك فقد كانت علاقاتهم بالشعوب الآخرى علاقة التابع بالمتبوع ، فدبلوماسيتهم إذن هى فرض رأيهم بالقوة على الآخرين ، وإنماءاً لنظرتهم القانونية التى تقوم على أساس المنطق الوضعى ، الذى أثر فى تلاشى العادات الدينية شيئاً فشيئاً حتى اختتفى القانون المقدس ، وحل محله قانون الشعوب الذى أصبح قانوناً وضعياً يحكم علاقات روما بغيرها من الشعوب الآخرى .

وهنا يصدق فيهم قول نيكولسون بأنهم " لم يوهبوا أى استعداد لفن التفاوض ، ففى عهد سلطانهم وسيطرتهم التى استمرت قرونا عدة كانت أساليبهم اساليب العسكريين الخشنة وبنائى الطرق أكثر منها أساليب الدبلوماسيين ، وفى أسوأ حالاتهم كانوا وحشيين فى اساليبهم قساة فى أهدافهم ، وأحسن ما ابتدعوه هو سحق خصمهم العنيد والصفح عمن يخضع لهم "(١٩).

نكتفى بهذا الحديث عن الفكر الدبلوماسى لدى المجتمعات القديمة ، والذى أشرنا إليه عند كل من : الفراعنة ، والمدنيات الآسيوية ، والاغريق ، والرومان . وننتقل الآن الى الحديث عن هذا الفكر لدى مجتمع العصور الوسطى ، ونخص بالذكر الإمبراطورية البيزنطية ، والدولة الإسلامية الناشئة .

******

الفصل الثانى

الفكر الدبلوماسى لدى مجتمع العصور الوسطى

****

أولا: الفكر الدبلوماسى البيزنطى

من الثابت تاريخياً أن الامبراطورية الرومانية بعد مرورها بعوامل الضعف والانحلال خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، انقسمت إلى قسمين ، وتمخض عن هذا التقسيم وجود دولتين إحداهما الرومانية الغربية المقدسة ، والأخرى الرومانية الشرقية (البيزنطية) التى اتخذت القسطنطينية عاصمة لها .

ومما هو جدير بالذكر أن الوضع الدولى حينذاك قد فرض نفسه على الامبراطورية البيزنطية ، لكى تنحو نحو الدبلوماسية إذا ما أرادت تحقيق أغراضها والمحافظة على كيانها ، فالخريطة السياسية أذن أصبحت تضم عدداً من الدول القوية المعاصرة ؛ كالدولة العباسية، والأموية بالأندلس ، والرومانية المقدسة .

ومن هنا وجب على بيزنطة انتهاج الدبلوماسية فى علاقاتها بدلاً من استخدام الرمح والسيف لأنهما لايكفيان لفض المنازعات وانهاء

الخلافات وتحقيق الأهداف ، وبالفعل انتهجت بيزنطة الدبلوماسية ، وخصصت لها جهازاً يوجه مسارها (٢٠).

ومما تجدر ملاحظته أن الفكر الدبلوماسي البيزنطي قد اعتمد على عدة محاور نذكر منها .

أ- إضعاف القبائل والشعوب المجاورة لنشر الفرقة ، وإيقاع الخصومة بين شعوبهم .

ب - شراء صداقة بعض الدول القوية بطريق الرشوة والهدايا .

جـ - محاولة إدخال العديد من الناس في الديانة المسيحية (٢١).

وبالتالي فقد اعتمدت الدبلوماسية البيزنطية على الزيف والإفك والمكر والخداع ، وعلى ذلك تكون امتداداً لإفكار الإغريق عن دبلوماسية هرمس .

ومما تجدر الإشارة إليه أن البيزنطيين قد سمحوا لمبعوثيهم بممارسة التجارة إلى جانب عملهم الدبلوماسي ؛ لكي يخففوا من أعباء وجوه الإنفاق على الدولة ، فكان المبعوث يحمل معه بعض الأمتعة للتجارة ، وبذلك يكون قد خرج عن مهمته الرئيسية التي أُرسل من أجلها .

ولشك بيزنطة في الدبلوماسيين الوافدين عليها وتوجسها منهم خيفة ؛ كانت تسكنهم في مساكن خاصة وتبالغ في إكرامهم ، إلا أنها لم تغفل عن مراقبتهم بواسطة حرسها الخاص الذي كان يحصي

عليهم حركاتهم وسكناتهم ، - ويمثل هذا الحرس رجال المخـابرات - لمنـع تسـرب المعلومـات إليهم ، لاسـيما لـو كـانوا سفراء دولـة قويـة مجاورة فتخفى عنهم ثروات البلاد حتـى لاتكـون مطمعـا لهـم ، ومـن جانب آخر تستعرض القوات المسلحة عضلاتهـا حتـى يفت ذلـك فـى عضدهم .

وهكذا رأينا كيف اعتمد الفكر الدبلوماسى البيزنطى على إضعاف القبائل والشعوب المجاورة ، أو شراء صداقة الدول القوية بالرشوة والهدايا ؛ وكيف اتسم بالمكر والخديعة وغير ذلك من الأساليب .

وبطبيعة الحال فقد تطلب هذا العمل وجود معلومات كافيـة لـدى حكومة القسطنطينية عن الشعوب والدول المجـاورة ، لاسيما مواطـن ضعفهم وقوتهم حتى يمكن التعامل معهم ، ولم يكن ذلك يتأتى إلا عـن طريـق سفرائها المدربيـن المحـترفين ، فخفت عندئذ ضـوء السـفير المنادى أو الخطيب ، وظهر إلى حيز الوجود الدبلوماسى المحترف أو البـحاثة Le Diplomate observateur والـذى تـطلبته طبيعـة المرحلة (٢٢).

ننتقل بعد ذلك إلى الفكر الدبلوماسى لدى المسلمين .

ثانيا : الفكر الدبلوماسى لدى المسلمين .

يشهد الواقع والتاريخ على ماكان للمسلمين من فكر دبلوماسى راق ومتميز منذ قيام دولتهم ، وعلى الرغم من ذلك فمازال الغرب يغمض عينيه عن تلك الحقيقة ؛ ومن هنا فسوف نميط عنها اللثام بعد قليل ،إذ يجدر بنا قبل الولوج إلى ذلك أن نتوقف لحظات أمام هذا الفكر لدى العرب قبيل بزوغ فجر الإسلام حتى لانبخث الناس أشياءهم .

العرب والفكر الدبلوماسى قبيل الإسلام .

لقد أوجدت الظروف الحياتية للعرب من دينية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وسياسية ، وحربية اتجاههم نحو الدبلوماسية ؛ فبيت الله الحرام – الذى تهوى إليه الأفئدة من كل صوب وحدب – فى أرضهم ، والتجارة وأعمالها شغلهم ، والأسواق والأندية مكان لقائهم واجتماعهم ، والكر والفر بين بعضهم والبعض ديدنهم . ومن ثم كان لابد لهم من وجود علاقات دبلوماسية ، سواء على المستوى الفردى أو الجماعى ؛ لأنهم محتاجون إما لاشباع حاجيات ، أو لإنهاء نزاع ، أو لتصفية خلاف ، أو لعلاقة ودية مع قوى خارجية لتسهيل مهمة تجارية .

ومما يؤيد هذه الرؤية عناية قريش برسلها المبعوثة فى مهمات خاصة ، وإسداء النصح لها ؛ فيذكر (ابن الفرا) فى كتابه (رسل الملوك) أن قريشاً فى الجاهلية كانت إذا ارسلت رسولاً إلى بعض الملوك قالت له " احفظ شيئا : انتهز الفريصة فإنها خُلسة ، وبت عند رأس الأمر لاذنبه ، وإياك وشفيعاً مهينا فإنه أُضعف وسيلة، وإياك والعجز فإنه أوطأ مركب ، وعليك بالصبر فإنه سبب الظفر ولاتخض الغمر حتى تعرف القدر "(٢٣).

ولو أنعمنا النظر فى هذه الكلمات لرأينا كيف كانت قريش توصى رسولها بضرورة انتهاز الفرصة فى فصل الخطاب ، وعدم عجزه أو وهنه ، وأن لايستعين بضعيف ، ولايدلى بدلوه حتى يفهم الموقف ويقدّره ، وعليه بالصبر حتى يجنى ثمرة جهده .

وكانت قريش إذا توجه رسولها قالت " اللهم قو ضعفه ، واحرس غفلته ، وشد منته ، اللهم ، إطو عنه عول الأرض وهولها ، وحببه إلى أصحابه ، واحمله على ركابه ، وسلم له عصبها وقصبها ، وادرأ عنه وعنها الأعراض والأمراض ، حتى تؤديه سالماً إلى سالمين"(٢٤).

مما يؤكد عناية قريش برسولها وبالمهمة التى أوفد من أجلها ، حتى دابته جعلتها قريش موضع عنايتها ؛ لأنها إحدى أدوات رسولها فى مهمته .

ومما يذكر أن (عبدالمطلب بن هاشم) كان رسول قومه ونفسه ؛ حينما توجه للقاء (ابرهة الأشرم) وتحاور معه عن سبب قدومه لمكة غازياً ، وطلب منه رد إبله التى استولى عليها (٢٥).

ويقول المسعودى : إن وفدا من العرب قدم اليمن ليهنئ معديكرب بارتقائه السلطة ، وقد ضم هذا الوفد كل من : عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمية بن عبد شمس ، وخويلد بن أسد بن عبدالعزى ، وأبوزمعة وغيرهم . وما أن وصلوا اليمن حتى دخلوا إليه وهى فى أعلى قصره المسمى (غمدان) بمدينة صنعاء والملوك وأبناء الملوك عن يمينه ويساره .

وحينذاك تكلم الخطباء : فوقف عبدالمطلب بن هاشم وأثنى على الملك وأعلا من قدره وشأنه ، ثم هنأه بعودة السلطة إليه ، ومن أقواله :" ان الله جل جلاله قد أحلك أيها الملك محلاً رفيعا ، صعباً منيعا شامخاً باذخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ... وثبت أصله وبسق فرعه فى أكرم معدن ... وأنت أيها الملك ذروة العرب الذى له تنقاد، وعمودها الذى عليه العماد ... سلفك خير سلف وأنت لنا منهم خير خلف ... نحن أهل حرم الله ، وسدنة بيته أشخصنا إليك الذى أبهجنا من كشف الكرب الذى فدحنا ، ونحن وفد التهنئة لاوفد المرزئة . فقال الملك : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال : أنا عبدالمطلب بن هاشم ابن عبد مناف ، فقال الملك معد يكرب بن سيف : ابن اختنا ؟ قال

نعم : قال : ادنوه منى ، فأدنى ثم أقبل عليه وعلى الوفد فقال لهم : مرحبا وأهلا... قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار لكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم " (٢٦)

وعلى صعيد آخر ففى حرب الفجار * التى اندلعت بين قريش وكنانة ومعهم الأحابيش من جهة ، وقيس وثقيف من جهة أخرى ، وكادت تهلك الطرفين نجح (عتبة بن ربيعة) فى دعوته للصلح بين المتحاربين ، على أن يحصوا قتلاهم ومن زاد عن الآخر كانت له دية تلك الزيادة ، وبعد الاحصاء كانت الدية (لقيس) وقد تعهد بدفعها (حرب بن أمية) من قريش ورهن لسدادها ولده (أبا سفيان) (٢٧).

وهكذا بالدبلوماسية خمدت جذوة الحرب ليتفرغ الطرفان عندئذ لمواجهة مرحلة مابعدها .

وعندما عادت قريش من حرب الفجار اتفق رؤساؤها على تكوين حلف الفضول ، فتم ذلك فى دار (عبداله بن جدعان التميمى) وكان المتحالفون من بنى هاشم ، وبنى المطلب وبنى أسد ، وبنى زهرة ، وبنى تميم ؛ قد تحالفوا على ألا يجدوا مظلوماً بمكة من أهلها

---

* حرب الفجار: سميت بذلك لوقوعها فى الأشهر الحرم . المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ص ٢٧٨.

أو من غيرهم إلا نصروه ووقفوا إلى جواره ، وقد استحسن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذا الحلف ، وقال عنه " لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبدالله بن جدعان ما أحب لى به حمر النعم (أى ، رد العدوان وإعادة الحق إلى نصابه) ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت "(٢٨).

وهنا نرى أن قريشاً قد أوجدت هذا الحلف للحد من المنازعات والتشاحن وحل المشكلات بالطرق السلمية الودية بدلاً من الحروب المدمرة .

وعندما صدع سيل جارف جدران الكعبة ، وتم لقريش إعادة بنائها اختلف وجوه القوم فيما بينهم عند وضعهم للحجر الأسود ، وتلبد الجو بالغيوم ولاحت نذر الحرب بعد اختصام دام أربعة أيام ، وعلى أثر ذلك قال (أبو أمية بن المغيرة المخزومى) – وكان أسن رجال قريش – ياقوم : لاتختلفوا واحتكموا فيما بينكم إلى أول داخل لهذا المسجد ، وكان الداخل هو (محمد الأمين) صلى الله عليه وسلم ، قد بلغ من العمر إذ ذاك الخامسة والثلاثين ، وعندئذ اطمأن الجميع لما يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث ، وعندما علم الرسول بالمشكلة بسط رداءة وقال لهم ؛ لتأخذ كل قبيلة بطرف من

الثوب بعد أن وضع الحجر الاسود فيه ، ثم أمرهم برفعه معاً حتى انتهوا الى موضعه فأخذه بيده ووضعه فى مكانه (٢٩).

وهكذا بالحل الدبلوماسى من جانب أبى أمية بن المغيرة الداعى إلى التحكيم ، ومن جانب حكيم عاقل كالنبى الكريم صلى اللـه عليه وسلم الذى أوتى الحكمة، انتهى ذلك الموقف المتأزم إلى حل أرضى جميع الأطراف .

ويذكر (ابن الفراء) أيضاً أن (أكثم بن صيفى) قد أوصى ولده عندما أرسله إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد علم بمبعثه قائلا له " لاتحدثن أمراً دونى ، فإن الرسول إذا أحدث الأمر من عنده خرج من يدى الذى أرسله ، واحتفظ بما يقول لك إذا ردك ، فإنك إن توهمت أو نسيت أفسدت رسالتك وجشمتنى رسولا غيرك " (٣٠).

نخلص من هذه الكلمات القليلة إلى إشارات واضحة عن إسهامات العرب قبيل الإسلام ، فى إنماء شجرة الدبلوماسية ؛ إذ أرسلوا الرسل وأسدوا النصح لهم ، وأوقفوا القتال إثر دعوة للصلح ، وأنشأوا حلف الفضول لرد المظالم إلى أصحابها وإنهاء الخصومات ، كما أسهم بعض رجالهم وحكمائهم فى القضاء على نذر الحرب التى كادت أن تنشب حول الحجر الأسود . ومن هنا كانت لهم بصماتهم فى هذا المجال .

وبعد تلك الومضة الصغيرة ننتقل إلى إلقاء الضوء على الفكر الدبلوماسى لدى المسلمين .

المسلمون والفكر الدبلوماسى.

يلحظ الدارس للدبلوماسية أنها قد حظيت بنصيب كبير فى التعاليم الإسلامية ، منذ أن أشرقت شمس الإسلام على بلاد العرب ؛ فالحق تبارك وتعالى فى سورة التوبة يقول : " وإنْ أحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ استَجَارَكَ فَأجِرْه حَتى يَسْمَع كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أبلِغْه مَأمَنَه ذلِكَ بِأنَهُمْ قَوْمٌ لاَيَعلَمُون "(٣١).

وتدل هذه الآية الكريمة على معان دبلوماسية متعددة منها : تأمين الموفد وإن كان مشركاً ، وحسن معاملته ، وفى ذلك فتح للعلاقات الودية وبعد عن الصراعات مما يحقق الأمن والاستقرار للمجتمعات .

وقد فسر (ابن كثير) هذه الآية بقوله : " إنه من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام فى أداء رسالة أو تجارة او طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أمانا مادام متردداً فى دار الإسلام وحتى يرجع الى داره ومأمنه فله ذلك " (٣٢).

وهنا يؤكد (ابن كثير) على مدى مايتمتع بـه المشرك من حرية وأمان فى دار الإسلام وتحت ظلاله الوارفة ، كما يشير فى كلامه إلى تعدد أنماط الدبلوماسية وأغراضها مابين السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك .

وما من شك فإن مواقف النبل الدبلوماسى فى كتاب الله عز وجل كثيرة ومتعددة ؛ ففى سورة (آل عمران) يقول الحق تبارك وتعالى " قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا." (٣٣) ويقول جل علاه فى نفس السورة " ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيئ قدير(٣٤) وغير ذلك العديد من الآيات القرآنية التى توضح حقيقة واحدة ألا وهى : أن للكون إلها واحداً مدبر له .

ومن هنا فعلى العالم كله أن يعى حقيقة تبعيته لهذا المركز الواحد ، وبذلك وجب على جميع أجزائه الترابط فيما بينها وسعيها جاهدة لتنجذب نحو هذا المركز ، وإن آية محاولة يكون من شأنها خلق هوة اجتماعية أو توسيعها بين سكان الكون ، ليست إلا تمردا على حقيقة ساطعة للجميع .

وفى ذلك دعوة للمحبة وتناس للبغض بين الناس والعيش فى أمان وسلام ، ودعوة إلى ترابط شخوص المجتمع الدولى ، وبعدهم

عن المشاحنات والخصومات ، وتلك في حد ذاتها قمة النبل الدبلوماسي .

وفي سورة الحجرات يقول عز من قائل " ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " (٣٥).

وفي هذه الآية يخبر الحق تبارك وتعالى الناس جميعا بأنهم أمة واحدة ، خلقهم من أب واحد ومن أم واحدة ، ومن ثم فالتعارف والتعاون لا التباغض والتحاسد يجب أن يكون رابطة العلاقة بينهم ، لما في ذلك من عودة بالنفع والخير على كل جماعة بشرية بما عند الجماعة الأخرى ، فخيرات الأرض لم تخلق إلا للانسان الذى يعمرها ، وبالتالى فيجب الا تستفيد جماعة واحدة من هذه الخيرات وتحرم غيرها .

وإذا كانت الأرض في أقاليمها الإنتاجية تتسم بالاختلاف فيما بينها ، فإن ذلك لم يكن إلا لإفادة البشرية كلها ، وبالطبع لم يكن السبيل إلى ذلك إلا بالتعارف والتعاون والمودة ، ويؤكد صاحب العزة هذا المعنى فيقول في سورة المائدة : " وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان " (٣٦) وهي دعوة صريحة لما يجب أن تكون عليه العلاقات بين الناس من ود وسلام وتعاون للانتفاع بخيرات الأرض التي خلقوا منها دونما فخر لطائفة على الأخرى .

وقد أكد النبى ﷺ هذا المعنى فى حجة الوداع حينما خطب الناس قائلا : " ايها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى " (٣٧).

وهنا يؤكد الرسول ﷺ على الوحدة الإنسانية ويدعوالناس إلى التواضع عندما ذكرهم بأنهم من تراب ، وبأنهم جميعا سواسية، ولا تفوق لأحدهم على الآخر إلا بالعمل الصالح والتقوى ، فلا أنساب ولا أحساب ، ولا جاه ولا سلطان بل عمل وجهاد ، وهي دعوة اجتماعية تؤدى إلى الترابط بين الناس كما تدعوهم إلى الود والمحبة ، ما أعظمها دعوة وما أعظمها دبلوماسية

وفى سورة المائدة قالى تعالى " اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولامتخذى أخدان " (٣٨) وتشير هذه الآية الكريمة إلى اتجاهين رئيسيين فى العلاقات الإجتماعية بين المسلمين وغيرهم ، أولهما : حسن المعاملة والبر ؛ نتيجة إقبال المسلم على أكل طعام الكتابى والعكس صحيح ، وثانيهما : زواج المسلم من الكتابية ، بما يشيع المحبة بين الناس ، ويسهم فى زيادة الترابط بين المسلمين وأهل الكتاب ، لاسيما وأن الزوجة الكتابية فى ظل الإسلام سوف تباشر تعاليم دينها دونما أية مشقة .

فهى اذن دعوة لحسن العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة تؤدى إلى الترابط بين الناس .

لكن ربما يعن للبعض تساؤل فى هذه الجزئية وهو : لماذا لايجوز زواج الكتابى من المسلمة ؟ وإجابة ذلك لاتحتاج إلى كبير جهد ، لأن الزوج الغير مسلم لايعترف بنبوية محمد ﷺ ، ولايجل القرآن الكريم ويعظمة وهو كلام الله سبحانه وتعالى ، ولايأبه بتشريعات الإسلام ، ولاشك أن زواجا كهذا لو تم لأحدث ضررا بالغا على المجتمع بما يسهم به فى تقويض دعائمه.

وفى سورة البقرة يقول جل شأنه " لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم " (٣٩) وفى سورة يونس يقول: علا قدره "ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (٤٠) ويقول : فى سورة الكافرون " قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين " (٤١)

وتؤكد تلك الآيات القرآنية الكريمة على احترام حرية عقيدة الآخرين، فلا إكراه فى الدين ، ولا قهر لعقيدة ، وإنما على الإنسان

أن يختار مابين الدين الصحيح وغيره ، بكل الحرية لأنه فى ذلك إنماء للعقل الصالح والفكر السليم ومن هنا يتكون المجتمع المترابط القوى ... فتلك بلا شك قمة من قمم الدبلوماسية التى دعا إليها الإسلام

فإذا ماحانت منا التفاته إلى مجتمع كالهند مثلا من باب المقارنة ، لرأينا الطبقية تمزقه ؛ فالهندوسية تنص على أن الملك إله فى صورة إنسان فوق الأرض ، وإن كان طفلا رضيعا ، كما أُلزمت جميع طبقات الشعب على تقديم فروض الولاء والطاعة له ، كما كانت لم ولن تسمح لأى شخص مهما كان مركزه بنقده أو التندر بتصرفاته .

ومما يذكر أن المجتمع الهندوسي كان ينقسم إلى أربع طبقات (البرهمية ، والكشتريا ، والويشيا ، والشودرا) وكانت الأولى أعلى الطبقات قدرا ، إذ يقوم أصحابها بالتعلم والتعليم وإرشاد الناس فى أمور دينهم وبذلك يكون البرهمى هو المعلم والكاهن والقاضى . أما الثانية، فكان على أفرادها أن يتعلموا ويقدموا القرابين ، ويجندون للدفاع عن البلاد ، بينما كانت الثالثة ،على رجالها العمل فى الزراعة والتجارة وجمع المال وإنفاقه على مؤسسات التعليم ، وأما آخر الطبقات (الشودرا) فكان عليها خدمة الطبقات الثلاث عاليه القدر السالف ذكرها ، ويذكر من شرائع (منى) أن الملك كان يأمر بصب

الزيت الحار فى فم الشودرا وأذنيه ، ما إن أبدى رأيا لم يكن على هوى البراهمة (٤٢).

وبذلك تكون الشودرا أحط طبقات المجتمع الهندى وأقل شخوصة .

ولم يكن ليعزب عن فكرنا تسلط اليهود على العالم باعتبارهم كما يزعمون أنهم طبقة متميزة بين الشعوب ، وكذلك ما قامت به الكنيسة من تسلط على الشعب المسيحى وإصدار قرارات الحرمان الفردية والجماعية ضدة .

بينما نرى العقيدة الإسلامية تسوى بين الطبقات والأجناس ، ولعل (عمر بن الخطاب) فى ذلك المقام يضرب لنا مثالا رائعا ؛ إذ استأذن فى الدخول إليه كلا من بلال (الحبشى) وأبو سفيان (الزعيم القرشى) فدخل الآذن على عمر قائلا : بالباب "أبو سفيان وبلال" فغضب عمررضى الله عنه وقال للآذن قل : بالباب بلال وأبى سفيان ، وبالفعل أذن لبلال ولم يأذن لأبى سفيان . وقد تقبل أبو سفيان ذلك لآنه مبدأ من مبادئ الإسلام ، فلا فرق بين عربى ولا أعجمى إلا بالتقوى (٤٣).

يالها من عدالة ومن مساواة ومن دبلوماسية فقد خشى الفاروق على تأثر نفسية بلال إذا ماقدّم عليه أبو سفيان ، لأنه الأسبق

إسلاما ، وفى نفس الوقت قنع أبو سفيان بالأمر لأنه مبدأ اسلامى لايقبل النقاش .

وصفوة القول : فإننا بهذا العرض المتواضع نكون قد قدمنا غيضا من فيوضات القرآن الكريم الداعية إلى الخصال الحميدة ، فى التألف والمحبة ،،وحسن العلاقة والمودة ، وتجنب ويلات الحروب المدمرة ، ودعوة إلى إعمار الأرض وإنماء الفكر ، وجعل التعاون بين الناس على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، حتى تعيش البشرية فى سعادة ووئام متقدمة فى كل مظاهرها الحياتية تقدما مطردا .

وإذا ما انتقلنا إلى المصدر الثانى للشريعة الإسلامية وهو السنة النبوية المطهرة ، لرأينا كيف أعطى لنا النبى ﷺ دروسا مستفادة فى مجال الدبلوماسية ، إذا ما احتزاها العالم وفّرَ الأمن والأمان بين الناس .

فيذكر (ابن سعد ، وابن الفراء) أن النبى ﷺ فى دعوته إلى الإسلام أرسل كل من : جرير بن عبدالله، إلى ذى الكلاع ، وشجاع بن وهب الأسدى ،إلى جبلة بن الأيهم ، وحاطب بن أبى بلتعه، إلى مقوقس مصر ، وعمرو بن العاص ،إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى بعمان ، ودحية بن خليفة الكلبى، إلى هرقل قيصر البيزنطيين ، وعمرو بن أمية الضمرى ،إلى النجاشى ملك الحبشة ، وسليط بن

عمرو، إلى اليمامة ، والعلاء بن الحضرمـى ،إلى المنذر بن ساوى بالبحرين ، والمهاجربن أبى أميـة المخزومـى ،إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن ، وعبدالله بن حذافة السـهمى، إلى كسرى بن هرمز ملك فارس (٤٤).

وهكذا سوى الرسول ﷺ فى دعوته للإسلام بين الكبير والصغير ؛ بين ملوك الدول الكبرى وحكامها ، وبين الأمراء العرب فى أقاليمهم وبلدانهم ، ولو نظرنا إلى تلك التسوية لرأيناها على النقيض تماما مما قامت به عصبة الأمم ، ومن بعدها هيئة الأمم وأخيرا الأمم المتحدة التى لاتعترف إلا بالدول المستقلة ذات السيادة ، وحتى وإن أعترف أخيرا بحقوق الأقليات ، فإن هذه الحقوق قد تاهت نصوصها بين ازدحام الأوراق ، أو ضاعت لعدم لجدية فى عودة الحقوق إلى أصحابها والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة .

وإن دل هذا على شيئ فإنما يدل على سبق حضارى كبير للدبلوماسية الإسلامية ، التى يحاول الغرب أن ينكرها أو يجحدها عن قصد أو جهل .

وها هو النبى ﷺ حينما قرأ كتاب (مسيلمة الكذاب) ومدى رده التعسفى ؛ سأل صاحباه (عبدالله بن النواجه ، وابن أثال)عن رأيهما فيما قال صاحبهما على الرغم من شركه البين، فقالا : نقول

كما قال ؛ فرد النبى ﷺ قائلا : " أما والله لولا أن الرسل لاتقتل لضربت أعناقكما " (٤٥) .

ولو تأملنا هذا الرد لرأيناه رداً دبلوماسيا بليغا ؛ فقد كان بمقدوره ﷺ أن يقتلهما أو يحبسهما ، لكنه أعطى لنا وللبشرية كلها درساً مستفاداً فى معامله الموفد ، رغم غطرسته وخروجه على حد اللياقة فى الحديث فله فى الإسلام حق الحماية والأمن .

ويؤكد لنا صاحب (زاد المعاد) هذا المعنى بقوله " وكانت تقدم عليه رسل "أعدائه ، وهم على عداوته فلا يهيجهم ولا يقتلهم "(٤٦).

وفى صلح الحديبية * . ضرب الرسول ﷺ مثلا رائعا فى مجال الدبلوماسية ؛ إذ كانت قريش قد أرسلت وفدا لها بقيادة (بديل بن ورقاء) للتفاوض مع المسلمين ، – وبالطبع لم يكن هدف الوفد التفاوض بقدر ما كان للوقوف على قوة المسلمين

---

*الحديبية قرية متوسطه سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التى بايع النبى صلى الله عليه وسلم تحتها ، ويقال سميت بشجرة حدباء كانت فى ذلك الموقع ، بينها وبين المدينة تسع مراحل ، وبينها وبين مكة مرحله .

ياقوت الحموى : المصدر السابق ،مادة حديبيه جـ ٢ ص ٢٢٩.

وقصدهم الحقيقى - وبالرغم من إبلاغ قريش بنية المسلمين الحسنة إلا أنها أتبعت وفدها السابق بوفد ثان على رأسه (الحليس بن علقمة) سيد الأحابيش ، وعاد الوفد مؤكدا حسن نية المسلمين ، وإمعانا فى حسن النية أطلق النبى ﷺ(الهدى)أمامه ، لكن قريشا لم تقنع بذلك وأرسلت وفدا ثالثا ثم رابعا لها ، وكان على رأس الأخير (عروة بن مسعود الثقفى) وعاد الثقفى بنفس نتيجة سابقية (٤٧).

هنا شرع (النبى) ﷺ فى إرسال سفرائه لإطلاع قريش على موقف المسلمين ، وطمأنتها على أنه جاء معتمرا لاغازيا . وبالفعل سفر له (خراش بن أمية الخزاعى) لكن قريشا لم ترع حرمته كمبعوث ولم تعاملة بما عومل به مبعوثيها لدى المسلمين ؛ فعقرت ناقته وهمت بقتله لولا أن تداركه الأحابيش (٤٨).

بعد ذلك أرسل (النبى) ﷺ (عثمان بن عفان) لشرح وجهة نظر المسلمين لدى قريش ، لكن غيبته طالت وأشيع عن مقتله ، فكان لزاما على المسلمين أن يحسبوا حساباتهم للموقف الجديد فبايعوا النبى بيعه الرضوان ، لكن عثمان لم يلبث أن عاد ، وبعودته بدأت المفاوضات مرة أخرى ، وكان ، فى هذه المرة (سهيل بن عمر) هو رسول قريش إلى المسلمين ، وإنتهت المفاوضات بالصلح المعروف بصلح الحديبية والذى نص بوضع الحرب عن الناس عشر سنين .

ومن بنوده : من قدم مكة من أصحاب محمد ﷺ حاجا أو معتمرا فهو آمن على ماله ودمه ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو الشام فهو آمن على دمه وماله ، ومن أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه (رده) عليهم ، ومن جاء قريش ممن مع محمد ﷺ لم يردوه عليه (٤٩) .

وبالرغم من جور هذا الصلح ، فقد لعبت دبلوماسية الرسول ﷺ دورا مهما فى إنهاء الموقف المتأزم ، والوصول به إلى بر الأمان ، متناسيا ﷺ غطرسة (سهيل) التى تمثلت فى عدم موافقته على كتابة ﷽ وطلبه كتابة باسمك اللهم ، وكذلك عدم موافقته على كلمة (رسول الله) وطلبه كتابة محمد بن عبدالله ؛ ليضرب النبى ﷺ بذلك مثلا رائعا رائدا فى المفاوض الذكى الذى يعمل بصدق وإخلاص على مصلحة دينه ووطنه .

بل ويقطع النبى ﷺ شأوا كبيرا فى هذا المجال ؛ حينما ألحق كلامه النظرى للشروط بالتطبيق العملى ، إذ رد أبا رافع الذى جاءه سفيرا من قريش عقيب الصلح ، وبعد أن وقع الإيمان فى قلبه ، طلب من الرسول ﷺ بقاءة وعدم رجوعه لقريش ، لكن الرسول ﷺ رد عليه قائلا " إنى لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد فارجع إليهم " (٥٠)

كذلك لم يتوقف العمل الدبلوماسى للرسول عند هذا الحد ، بـل أنه قدم عونا اقتصاديا لقريش مقداره خمسمائة دينـار أرسلت مـع (حـاطب ابـن أبـى بلتعـة) إلـى (أبـى سـفيان) ليشـترى بهـا قمحـا ويوزعها على فقراء قريش ، كما توسط بين قريش وبين (ثمامة بـن أثال) حتى يعاود بيعه القمح لها ثانية (٥١) .

كذلك سمح ﷺ لوفد (نجران) بإقامة شعائرة الخاصة بمسـجد المدينة دون التعرض لهم بشئ ، وتلك دبلوماسية على جانب كبير من الأهمية الاجتماعية (٥٢).

وبهـذا يكـون الرسـول ﷺ كمـا رأينـا هـو واضـع أسـاس الدبلوماسية فى الإسلام ؛ بمواقفه المرنة المتعـددة ، ولـو تتبعنـا آثـاره الخالدة فى هذا المجال لملأنا مجلدات ومجلـدات . ولكننـا نكتفـى بهـذا الغيض من فيوضـات الرسول ﷺ، لنعرج فى عجالة إلـى ذكـر شـيئ عن دبلوماسـية بعـض الخلفـاء الراشـدين والأمويـين لتكتمـل الصـورة بعض الشيء.

دبلوماسية بعض الخلفاء الراشدين والأمويين.

بعد وفاة الرسول ﷺ تبوأ (أبو بكر الصديق) رضى الله عنه حكم المسلمين ، فقاد السفينة إلى بر الأمان ، ويذكر من دبلوماسيته أنه وجه مبعوثيه إلى امبراطور الدولة البيزنطية مؤكدا بذلك مواصلة دبلوماسية الرسول ﷺ ، وما إن تولى (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه خلافة المسلمين حتى واصل سياسة صاحبيه النبى ﷺ ، والصديق) ، وتبادل مع الدولة البيزنطية السفراء مؤكدا حرصه الشديد على استعمال الدبلوماسية فى توجيه سياسة دولته (٥٣).

ومما يذكر من دبلوماسيته رضى الله عنه ، أنه حينما كان بالجابية * مع قواته ، أرسل (خالد بن ثابت) لفتح إلياء (بيت المقدس) ، وقد تمكن خالد من عقد الصلح مع أهلها ، لكن البطريرك (سفرنيوس) Sophronios رفض تسليم مفاتيح المدينة إلا للخليفة نفسه ، وانطلاقا من دبلوماسيته وحرصه على إتمام الصلح لم يتردد فى إجابة طلب البطريرك ، فوصل إلى بيت المقدس التى فتحت له ، والتقى ببطريقها وعاهده على ماعهد عليه خالد بن ثابت (٥٤).

---

* الجابية . قرية من أعمال دمشق من عمل الجيدور ، ناحية الجولان قرب مرج الصفرة . ياقوت الحموى . مادة جابية . جـ ٢ ص ٩١.

وإن دل هذا على شيئ فإنما يدل على مدى دبلوماسية (عمر) الفائقة ، فعلى الرغم من كونه الخليفة ورئيس الدولة ، إلا أنه من بـاب حرصـــه علـى إقـرار السـلم ، توجـه دونمـا حـرج لمقابلـة البطريـرك (سفر نيوس) – الذى لم يزد حجمه عن حاكم لاحدى المناطق التابعـة للدولة الاسلامية – وأقرّ معه الصلح الذى وقعه خالد بن ثابت .

ومما يذكر أيضا فى عهد الخليفة (عمـر) أن قـائده (عمـرو ابن العاص) عندمـا توجـه لفتـح مصـر ، تـرددت الرسـل بينـه وبيـن قيرس Cyrus (المقوقس) حاكم مصر ، وقد نجحت هذه الرسل فــى تمهيد الطريق لعقد اتفاقية بين الطرفين فيما بعد (٥٥) .

ومـاإن أتى العصر الأموى حتى شهد عددا من السفارات التــى تبـودلت بيـن الأمويين والقـوى المعـاصرة لهـم ، (فمعاويـة بـن أبـى سفيان) رأس الدولة وأول حكامها ، تبادل الرسل مع امبراطور الدولة البيزنطية (٥٦) ؛ إذ أرسل الثـانى إلـى الأول رجليـن معهمـا رسـالتان يقول فى الأولى : " إن أحد الرجلين أقوى الروم ، والآخر أطول الـروم فانظر هل فى قومك من يفوقهما فــى هـذا ؟ فـإذا كـان فـى قومـك مـن يفوقهما بعثت إليك من الأسارى والتحف كذا وكذا ، وإن لـم يكـن فـى جيشك من هو أقـوى وأطـول منهمـا دعنـى ثـلاث سنين " (٥٧) أى أن الامبراطور البيزنطى قد عمد إلى ذلك ربما من باب تخفيـف الضغـط

العسكرى الأموى على بلاده ، ومما يذكر أن (محمد بن الحنفيه) تغلب على القوى ، بينما فاق (قيس بن سعد) بطوله الطويل .

وأما رسالته الثانيه فجاء فيها : من قيصر الروم إلى معاوية خليفة المسلمين : " إخبرنى عما لاقبلة له ، وعمن لا أب له ، وعمن لاعشيرة له ، وعمن سار به قبره ، وعن ثلاثة أشياء لم تخلق من رحم ، وعن شيئ ، ونصف شيئ ، ولا شيئ ، وابعث إلى فى هذه القارورة بذور كل شيئ ، " (٥٨) .

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى معاوية ، بعث بها وبالقارورة إلى (عبدالله بن عباس) طالبا منه الإجابة عما بها . فقال (ابن عباس) : أما مالا قبلة له ، فالكعبة . وأما من لا أب له ، فعيسى . وأما من لاعشيرة له ، فآدم .وأما من سار به قبره فيونس ، وأما الثلاثة أشياء التى لم تخلق من رحم ؛ فكبش ابراهيم الذى فدى به ابنه اسماعيل ، وناقة ثمود ، وحية موسى ، وأما الشيئ فالرجل له عقل يعمل به ، وأما نصف الشيئ ، فالرجل الذى ليس له رأى ويعمل برأى غيره من ذوى العقول ، وأما لاشيئ فالذى ليس له عقل يعمل به ولايستعين برأى غيره . ثم ملأ القارورة ماء وقال هذا: بذر كل شيء . ثم قام معاوية بارسال الإجابة التى خطها (ابن عباس) إلى الامبراطور البيزنطى ، فلما رآها صحيحة قال ماخرج هذا إلا من بيت النبوة " (٥٩).

وإن دل هذا الموقف علـى شيئ فإنمـا يدل علـى رقـى العقـل العربـى ، وعلـى أن البعثـات الدبلوماسية لـم تكـن وقفـا علـى الناحيـة السياسية فحسب ، كوقف قتـال ، أو إقـرار هدنـة ، أو تبادل أسـرى ، وإنما إرتقت إلى نوع من التبادل الثقافى والمعرفى .

وها هو عبدالملك بن مـروان الخليفـة الأمـوى الرابـع يرسـل مبعوثه (عـامر بـن شـرحبيل الشـعبى) إلـى البـلاط البيزنطى ، وقـد أعجب الامبراطور عنـد لقائـه مـع الشـعبى بتفكيره أشد الإعجـاب ، ونترك الحديث للشعبى فيقول : " فلما أردت الانصراف قال لى : مـن أهل بيـت المملكـة أنـت ؟ قلـت : لا ، ولكنـــى رجـل مـن العـرب فـى الجملـة ، فهمـس بشـيئ ، فدفعـت إلـى رقعـه ، وقيـل لـى : إذا أديـــت الرسائل إلى صاحبك أوصل إليه هذه الرقعة ، قـال : فـأديت الرسـائل عند وصولى إلى عبدالملك ، ونسـيت الرقعـة فلمـا صـرت فـى بعـض الدار ... تذكرتها فرجعت فأوصلتها إليه ، فلما قرأها قـال لـى : أقـال لك شيئا قبـل أن يدفعهـا إليـك ؟ قلـت : نعـم ، قـال لـى مـن أهـل بيـت المملكة أنت ؟ قلت : لا ، ولكنـى رجـل مـن العـرب فـى الجملـة ، ثـم خرجت من عنده ، لما بلغت الباب رددت فلما مثلت بين يديه قال لـى: أتدرى مافى الرقعة ؟ قلت : لا ، فقال : اقرأها ، فلما قرأتها فإذا فيها: عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره ، فقلـت لـه : واللـه لـو علمت مافيها ماحملتها ، وإنما قال هذا لأنه لم يرك ، قال أفتدرى لـم

كتبـــها ؟ قـلت : لا ، قـــال : حسدنى عليك وأراد أن يغرينـــى بقتلك " (٦٠).

ويضيـف ابـن الفـراء عـلى روايـة المـسعودى عند سـؤال (عبدالملك) للشعبى عن فحوى الرقعة رد الشعبى إذ قال : " يـاأمير المؤمنين إنما كبرت فى عينيه لأنه لم يـرك ، ولـو رآك لاسـتحقرنى ، فقال له أحسنت ياشعبى ولكن أتدرى ما أراد بما كتب قال : لا ، قال : حسدنى عليك فأراد أن يغرينى ويحملنى على قتلك " (٦١).

ومن هذين النصين يتضح لنـا أن (الشـعبى) كـان دبلوماسـيا ذكيا اتصف بالصدق فى القول والإخلاص فـى العمـل لسيده ، إذ أنـه عندما سئل عن صلتـه بـالبلاط الحـاكم أجـاب قـائلا : إننـى رجـل مـن العـرب علـى الجملـة ، وحينمـا سـأله الخليفـة عبدالملـك ، أقـال لـك الإمبراطور شيئا قبل إعطـائك هذه الرقعـة ، كـان رده بنعـم ، سـألنى أأنت من بيت المملكة قلت لا . وبعد اطلاع سـيده علـى الرقعـة احـس بما كان فى نفسه فقال : له . يا أمير المؤمنين إنمـا كـبرت فـى عينيـه لأنـه رآنـى ، ولـو رآك لاسـتحقرنى ، فـأرضى سيده عليـه وقـال لـــه أحسنت ياشعبى .

وهذا دليل علـى مـدى ماكـان يتمتـع بـه الشـعبى مـن الفطنـة والذكاء والصدق والإخلاص .

ومما يزيد ذلك إيضاحا ؛ أن الخليفة عبدالملك بن مروان قال (للشعبى) ذات مرة ، إنك لدميم ياشعبى ، فرد الشعبى قائلا : لقد (زوحمت فى الرحم يا أمير المؤمنين) (٦٢)، وهذا يعنى أنه (توأم) وهو رد دبلوماسى بلا شك ؛ إذ أنه خشى أن يقول لسيده هذا أمر الله فيؤلم الخليفة ويغير نفسه عليه ، كما أنه لم يشأ أن يظهر مدى تأثيره بالكلمة ، حتى لاتنال منه ومن تصرفاته فتزدريه عين سيده ويشك فى كفاءته ، وإنما رد هذا الرد الدبلوماسى على أن مابه من دمامة وقلة فى الجسم إنما ذلك لكونه توأما .

وها هو الوليد بن عبدالملك يرسل إلى الإمبراطور البيزنطى، طالبا عونه فى إعادة بناء مسجد رسول ﷺ ، فيرد الإمبراطور بإرسال مائة الف مثقال من الذهب ، ومائة عامل ، وأربعين حملا من الفسيفساء (٦٣) .

وربما قصد الإمبراطور ذلك لاظهار النوايا الحسنة ، فى محاولة منه لوقف حملات المسلمين على بلاده لالتقاط الأنفاس ، ودرء أية أخطار أخرى على بلاده داخليا أو خارجيا .

وإذا كانت بيزنطة قد أخذت حيزا من الفكر الدبلوماسى لدى كل من معاوية بن أبى سفيان ، وعبدالملك بن مروان ، والوليد بن عبدالملك ، فإن عهد سليمان بن عبدالملك قد شهد تطورا آخر فى هذا المجال ؛ إذ أرسل فى أيامه وفد من قبل (قتيبة بن مسلم الباهلى) إلى

بلاد الصين . وإن كان صاحب كتاب (العلاقات بين العرب والصين) يؤكد وصول وفد قبل هذا التاريخ فى عام ٦٥١م خلال حكم (يونخوى) امبراطور الصين المعاصر للخليفة الراشدى الثالث (عثمان بن عفان) لإخبار الامبراطور ببعثة سيدنا محمد ، ودعوته للتوحيد ، وإخباره بقيام الدولة الاسلامية منذ أربع وعشرين عاما (٦٤).

فإذا ما رجعنا لوفد (قتيبه بن سلم) لرأيناه بعد وصوله إلى (كاشغر) أدنى مدن الصين ، راسله ملك الصين قائلا له : " ابعث إلينا رجلا من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ، ونسائله عن دينكم ، فانتخب قتيبه من عسكره اثنى عشر رجلا من أفناء القبائل لهم جمال وأجسام وألسن وشعور وبأس ... وأمر لهم بعدة حسنه من السلاح والمتاع الجيد من الخز والوشى واللين من البياض والرقيق والنعال والعطر وحملهم على خيول مطهمة تقاد معهم ، ودواب يركبونها "

بعد ذلك تحدث (قتيبه) مع هبيرة بن المشمرج ، وكان مفوها وأوصاهم عند تواجدهم بالبلاط الملكى قائلا : " فاذا دخلتم عليه فأعلموه أننى قد حلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم ، وأجبى خراجهم "

وما أن التقى الوفد بالملك الصينى حتى أبلغوه رسالة قتيبه ، فامتعض الملك واستهان بهم وبمرسلهم ، وهددهم إن لم يرجعوا

وسيدهم عن بلاده فسوف يقتلهم لما هم فيه من قلة العدد وضعف العتاد ، وعندئذ رد الوفد قائلا : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا وغزاك ، وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولانخافه ، قال : فما الذى يرضى صاحبك ؟ قال : إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ، ويختم ملوككم ويعطى الجزية ، قال فإن نخرجه من يمينه : فبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزيه يرضاها ، قال : فدعا بصحائف من ذهب فيها تراب وبعث بجزية وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجازهم فأحسن جوائزهم " (٦٥) .

توجه الوفد بعد ذلك بمن معه إلى (قتيبه بن مسلم) فقبل الجزية ، وختم الغلمان وردهم إلى بلادهم ، ووطئ التراب .

وهكـذا رأينا كيف كانت دبلوماسية الوفد المرسل من قبل قتيبه ؛ فلم ترهبه مظاهر أبهة البلاط الصينى ، وحينما أحس رجاله بتهديد الملك لهم كان ردهم ردا دبلوماسيا بليغا ، نجحوا على أثره فى تحقيق بعض المكاسب .

وفى عهد سليمان بن عبدالملك وفدت إلى الصين أيضا سفارة عام ٧١٦م ، وقد قدمت هذه السفارة بعض الهدايا من العباءات

المنسوجة من خيوط الذهب والعقيق ورشاشات العطور وأشياء نفيسه، إلى امبراطور الصين (كاثى يوانغ) (٦٦).

وفى عهد هشام بن عبدالملك يذكر (ابن الفراء) وصول رسول لبعض ملوك الفرس ، وحينما رأى هذا الرسول ما أعد وحشد " فلم يزد على الإطراق وترك التلفت والنظر أمامه ، ولم يعر شيئا مما أعد له " ولما سئل عن ذلك الموقف قال : " إن عينى وقلبى مملوءان مما خلفته ورائى يشغلها عظيم ماعندنا عن صغير ماعندكم "

وهو موقف يدل على وثوق هذا المبعوث واعتداده بنفسه ، حتى قال (هشام) فى ذلك " إن صاحبه كان أعلم به إذ توخاه لرسالته " (٦٧).

مما يؤكد دربة هذا المبعوث الذى لم يكن قطعا من الفرس كما جاء فى كلام (ابن الفراء) وإنما من الدولة البيزنطية ، لأن وصفه لما ترك فى بلاده لم يكن لينطبق على بلاد الفرس .

ومما يذكر أيضا إن هشام بن عبدالملك أوفد رسولا إلى الملك الصينى (هسوان تسونج) لتوطيد العلاقة بين الطرفين ، وبذلك يكون هشام قد وجه جهوده الدبلوماسية شرقا وغربا على السواء ليحقق ميزان التوازن الدبلوماسى .

وهكذا رأينا من خلال تلك السطور المتواضعة للتطور التاريخى للفكر الدبلوماسى ، لدى المجتمعات القديمة ، ومجتمع

العصور الوسطى ، كيف تعددت أغراض الدبلوماسية واتجاهاتها مما يؤد بنا إلى استخلاص نتائج ثلاث .

أولها : أن العرب المسلمين كان لهم دورهم الفعال والملحوظ فى مجال الدبلوماسية ، بكل جوانبها السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية ، مستمدين ذلك من آيات القرآن الكريم ، والسنه النبوية المطهره قولا وفعلا ، ومواقف بعض الخلفاء الراشدين والأمويين ، وذلك بالطبع مغاير تماما لما يزعمه كتاب الغرب من أن المسلمين ليس لهم كبير جهد فى المجال الدبلوماسى .

وثانيها : مدى الصدق والثبات فى الأقوال والأفعال ، وعدم الجنوح إلى المساومة أو الانحياز إلى العواطف والأهواء الشخصية فى تسييس أمور الدولة . وهى سمات بلا شك تحلت بها الدبلوماسية الإسلاميه كما اتضح ذلك من سياسه الرسول ﷺ فى موقف (أبى رافع) وهذا على النقيض كما نعرف من دبلوماسية.الغرب التى أسست على النفاق منذ زمن (هرمس) وحتى الآن ، كما شهد بها (نيكولسون، ورنسيمان) فيما أسلفناه ، ويؤكدها فى العصر الحديث الدكتور(كارل دويتش): استاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الإمريكية . إذ ذكر قائلا : " بطبيعة الحال تستطيع الدول فى المقام الأول أن تتفاوض وأن تساوم بواسطة الطرق العادية للدبلوماسية ، وعادة مايكون سفراؤها ووزراء خارجيتها وكبار

موظفيها الدبلوماسيون مفاوضين محنكين ، يعرفون أنه فى سبيل الحصول على خدمة قد يضطر المرء إلى أن يعد بتقديم خدمة فى مقابلها ، ويعرفون أيضا انهم فى بعض الأحيان يستطيعون أن يضعوا فى موازين المساومة إيحاءات مهذبة بأن الخدمات التى سبق تقديمها للدولة الأخرى من المحتمل أن تستمر إذا ما تحققت الرغبات الحالية لحكومتهم " ويضيف قوله " وغالبا ماتشبه المساومة من هذا النوع لعبة الدبلوماسية التى تعالج طبقا لقواعدها مصالح الطرفين " (٦٨) .

أى أن دبلوماسية الغرب تقوم أساسا على تبادل المصالح والمنافع – التى تستخدم فيها المساومة – بين الطرفين دون الخضوع لقيم أو مثل أو قواعد ثابتة .

وثالثها : أن معظم الكتابات عن الدبلوماسية اعتبرت العصر العباسى هو بداية تطورها وتعدد أغراضها ، لكن ذلك يحتاج منا إلى وقفة متأنية ، إذ اتضح مما تقدم أن هناك تنوعا لاغراض الدبلوماسية فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعيه وغيرها ، ولعل قبول النبى ﷺ لهدية قيرس (مقوقس مصر) ، وتبادل الهدايا بين (أم كلثوم بنت على بن أبى طالب) زوجة سيدنا عمر، وبين زوجة هرقل امبراطور بيزنطة (٦٩) يؤكد هذا التنوع لاسيما فى الجانب الاجتماعى .

وبذلك نكون قد وضعنا بنية تحتية فى هـذا البـاب ،لننتقـل إلـى تنظير ذلك فى حديثنا عن الدبلوماسية فى العصر العباسى أو العلاقات الدبلوماسية للخلافة العباسية .

****

حواشي الباب الاول :

****

(١) نيكولسون :

المرجع السابق ، ص ٤٧ •

(٢) نيكولسون :

نفس المرجع والصحفحة •

(٣) فوده (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ٢٤ •

(٤) فودة (عز الدين) :

نفس المرجع ، ص ٦٩ •

(٥) حسن (سليم) :

كتاب مصر القديمة جـ ٥ ، ص ٦٢٢ - ٦٢٤ ، القاهرة ١٩٤٨م •

(٦) حسن (سليم) :

المرجع السابق والجزء ، ص ٦٢٦ •

(٧) حسن (سليم) :

نفس المرجع والصفحة •

(٨) حسن (سليم) :

نفس المرجع والجزء ، ص ٦٢٨ - ٦٢٩ •

(٩) حسن (سليم) :

نفس المرجع ٠ الجزء ، ص ٦٣٠ - ٦٣٣ ٠

(١٠) حسن (سليم) :

المرجع السابق ، ص ٦٣٧ - ٦٣٨ ٠

(١١) حسن (سليم) :

المرجع السابق ٠ الجزء ص ٦٤٢ ٠

(١٢) فودة (عز الدين) :

المرجع السابق ٠ ص ٨٨ - ٨٩ ٠

(١٣) نيكولسون :

المرجع السابق ، ص ٤٨ ٠

(١٤) نيكولسون :

نفس المرجع والصفحة ٠

(١٥) نيكولسون :

نفس المرجع ، والصفحة ٠

(١٦) نيكولسون :

نفس المرجع ، ص ٤٩ ٠

(١٧) نيكولسون :

نفس المرجع ، ص ٥٠ ٠

(١٨) فودة (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ٩٣ - ٩٤ ٠

(١٩) نيكولسون :

المرجع السابق ، ص ٥٠ - ٥١ ٠

(٢٠) رنسيمان (استيفن) :

الحضارة البيزنطية ، ص ١٨٤ ، ١٩٢ ٠

ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد مراجعة : زكى على ، مكتبة : النهضة المصرية القاهرة ١٩٦١م ٠

(٢١) نيكولسون :

المرجع السابق ، ص ٥٢ ٠

(٢٢) فودة (عزالدين) :

المرجع السابق ، ص ١١٤ ٠

(٢٣) ابن الفراء (ابى على الحسين بن محمد) :

رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة تحقيق د/ صلاح الدين المنجد القاهرة ١٩٤٧ م ٠

(٢٤) ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٢٨ ٠

(٢٥) الطبرى :

ابوجعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ تاريخ الأمم والملوك

جـ٢ ص١٣٤ دار سويدان بيروت/ لبنان تحقيق ، محمد ابو الفضل ابراهيم ٠

(٢٦) المسعودى :

ابو الحسن على بن الحسين بن على السعود ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦

مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ٢ ص ٨٨ - ٨٩ تحقيق وتعليق الشيخ قاسم الشماعى الرفاعى دار القلم بيروت / لبنان الطبعة الاولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٩م٠

(٢٧) المسعودى :

المصدر السابق والجزء، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ٠

الخضرى (محمد) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ١١ -١٢ القاهرة ٠

(٢٨) المسعودى :

المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٠ ٠

الخضرى (محمد) :

المرجع السابق ، ص ١٢ ٠

(٢٩) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٩٠ ٠

(٣٠) ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٢٩ ٠

(٣١) سورة التوبة : آية ٦ ٠

(٣٢) ابن كثير : الامام الحافظ عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن كثير ت ٧٧٤ هـ ٠

تفسير ابن كثير جـ ٢ ص٣٧٩ قدم له د/ يوسف عبد الرحمن المرعشلى دار المعرفة بيروت / لبنان ١٩٩١م ٠

(٣٣) سورة أل عمران آية : ٦٤ ٠

(٣٤) سورة آل عمران آية : ١٨٩ .

(٣٥) سورة الحجرات آية : ١٣ .

(٣٦) سورة المائدة آية : ٢ .

(٣٧) أبو زهرة (محمد) :

العلاقات الدولية فى الإسلام ، ص ١٩ دار الفكر العرب القاهرة.

(٣٨) سورة المائدة : آية ٥ .

(٣٩) سورة البقرة : آية ٢٥٦ .

(٤٠) سورة يونس : آية ٩٩ .

(٤١) سورة الكافرون : آية ١ - ٦ .

(٤٢) المسعودى :

المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٧٩ .

شلبى (احمد) :

مقارنة الأديان ، جـ ٤ ص ٥٢ ، ٥٧ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٤م .

(٤٣) ابوزهره (محمد) :

المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٤٤) ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٣-٤ .

(٤٥) ابن قيم الجوزية ٠ ت ٧٥٠ هـ ٠

زاد المعاد فى هدى خير المعباد ، جـ٣ ، ص ١٣٩ ٠

تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط موسسق الرسالة بيروت

لبنان ١٩٩١م٠

(٤٦) ابن قيم الجوازية :

المصدر السابق ، ص ١٣٨ -١٣٩ ٠

(٤٧) ابن كثير :

البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٣٧٩ ، القاهرة ١٩٣٢ ٠

(شلبى احمد) :

العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى ، ص ٧٥ ، مكتبة النهضة المصرية

القاهرة الطبعة الخامسة ١٩٨٧ م ٠

(٤٨) عفيفى (محمد الصادق) :

تطور التبادل الدبلوماسى فى الإسلام ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ٠

(٤٩) ابن سعد ٠ ت ٢٣٠ هـ ٠

الطبقات الكبرى جـ٢ ٠ ص ٩٧ / دار صادر بيروت٠

ابن قيم الجوزية :

المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٠ ٠

(٥٠) ابن قيم الجوازية :

المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٩ ٠

(٥١) أبوزهرة (محمد) :

المرجع السابق ، ص ٤٢ ٠

(٥٢) ابن سعد :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ ٠

(٥٣) ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٥ ٠

(٥٤) ابن سلام (ابوعبيدالله) ت ٢٢٤ ٠

كتاب الاموال ، جـ ٢ ، ص٢٠١ – ٢٠٢ ٠

تحقيق : خليل محمد هراس :

الطبعة الثانية ١٩٧٥، دار الفكر للطباعة والنشر ٠الطبعة الثانية ١٩٧٥ م ٠

الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٦٤ حوادث ١٧ هـ ٠

ماجد (عبدالمنعم) :

التاريخ السياسى للدولة العربية عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين،

ص ١٨٨ الطبعة الخامسة القاهرة ١٩٧٥ م ٠

(٥٥) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص١٠٧ ، ١٠٨ حوادث ٢٠ هـ ٠

ماجد (عبدالمنعم) :

المرجع السابق ص ٢١٩ – ٢٢٠ ٠

(٥٦) ابن الفراء ٠

المصدر السابق ، ص ٣٤ ٠

(٥٧) ابن كثير :

البداية والنهاية ، جـ ٨ / ، ص١٠٥ ٠

عفيفى (محمد الصادق) :

المرجع السابق ، ص ٣٥ ٠

(٥٨) ابن عبدربه ت ٣٢٨ هـ ٠

العقد الفريد ، جـ ٢ ، ص ٦٠ ٠

(٥٩) ابن كثير :

البداية والنهاية ، جـ٨ ، ص ١٠٦ ٠

(٦٠) المسعودى ٠

المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١١٤ - ١١٥ ٠

ابن خلكان ت ٦٨١ هـ ٠

وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص ١٢ - ١٣ ٠

تحقيق د / احسان عباس دار صادر / بيروت ٠

(٦١) ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٥ - ٤٦ ٠

(٦٢) ابن الفراء ٠

المصدر السابق ، ص ٢٠ ٠

(٦٣) الطبرى :

جزء ٦ ، ص ٤٣٦ حوادث ٨٨ ٠

(٦٤) الصينى (بدرالدين حى) :

العلاقات بين العرب والصين ، ص ١٤٨ ، ١٨٠ ٠ مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٠ الطبعة الأولى ٠

(٦٥) الطبرى : ٠

المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٥٠١ - ٥٠٣ ٠

(٦٦) الصينى (بدر الدين حى) :

المرجع السابق ، ص ١٨٢ ٠

(٦٧) ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ١٣ ٠

(٦٨) دويتش (كارل) :

تحليل العلاقات الدولية ، ص ١٨٤ ٠

ترجمة شعبان محمد محمود شعبان مراجعة : د عز الدين فوده الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٣ ٠

(٦٩) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٦٠ ٠

****

الباب الثاني

***

العلاقات الدبلوماسية للخلافة العباسية

١٣٢ - ٢٣٢هـ

***

تمهيد

في عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م تبوأ العباسيون حكم الدولة الإسلامية خلفا لأسلافهم الأمويين ، ومن ثم فكان عليهم أن يوجهوا سياسة دولتهم داخليا وخارجيا على السواء ، وبالطبع فإن مايهمنا من هذه السياسة حسب موضوع بحثنا هو : العلاقات أو الصلات الدبلوماسية للخلافة العباسية مع أبرز القوى المعاصرة لها ، عبر قرن من الزمان من عام ١٣٢إلى٢٣٢هـ ، وهو مايحلو لبعض المؤرخين أن ينعتوه بالعصر الذهبي .

ومما تجدر الإشارة إليه أن أغراض الدبلوماسية وأهدافها في ذلك العصر قد تنوعت وتباينت فيما بينها ، حتى شملت ميادين واتجاهات عدة ؛ منها مايختص بالجانب السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي .

وعلى ذلك فلو اعتبرنا أن هذا الطرح بمثابة مقدمات ، فإنه كان لابد له من توال تعقبه ، حتى تسلمنا في النهاية إلى نتائج مرجوة ، ومن ثم فسوف توضح السطور القليلة الآتية ماقصده هذا الطرح قدر الجهد والطاقة ، وحسب توافر المصادر والمراجع التي عثرنا عليها .

الفصل الأول

فى الميدان السياسى

****

لاشك أن هذا الميدان يتسم دائما بالبروز والوضوح فى العلاقات الدبلوماسية ، وربما يرجع ذلك إلى الارتباط الوثيق بين السياسة والحرب ، التى غالبا ماتشغل أذهان الناس خاصهم وعامهم دون تفريق ؛ لما لها من بعض الآثار السلبية التى قد تعوق مسيرة حياتهم ، وبالتالى فإن تطلع المسؤلين إلى وقف القتال أثناء اندلاع الحروب له مدلوله ، فهو إما أن يكون لهدنة تلتقط من خلالها الأنفاس ، أو لتوقيع صلح من أجل تبادل للأسرى ، أو لإقرار اتفاقية سلام بين المتحاربين ، وعلى وجه الخصوص إذا مالاح فى الأفق عدو جديد يناوئ مصالحهم ويبدد آمالهم .

ويمكن لدارس التاريخ الإسلامى أن يلحظ دون عناء بروز هذا الميدان فى العصر الأموى ، ذلك لأن الدولة الأموية كانت فى صراع شبه دائم مع معاصريها من أجل تثبيت دعائم حكمها ، ومن هنا فقد خاضت حروبا متعددة شرقاًوغرباً على السواء ، وعقدت كثيراً من الاتفاقيات التى قادت بموجبها أسراها ، كما أقرت العديد من معاهدات الصلح ، حتى تركت فى النهاية من بعدها دولة مترامية الأطراف ؛ امتدت من الصين شرقاً إلى بلاد الأندلس وجنوب فرنسا غرباً ليأول هذا الملك بعد ذلك للعباسيين .

وما أن استهل العباسيون حكمهم (بأبى العباس عبدالله بن محمد) عام ١٣٢هـ /٧٥٠م ، إلا ومدوا يد العون لابن أمير (الشاش)* الذى طلب نجدتهم من خطر النفوذ الصينى الذى راح والده ضحية له .

وعلى الفور استجاب (أبو مسلم الخراسانى) والى خراسان من قبل العباسيين لهذه النجدة ؛ وطلب من قائده (زياد بن صالح) – الذى كان قد وجه أساساً للقضاء على تمرد (شريك بن شيخ المهرى) ببخارى عام ١٣٣هـ / ٧٥١م – أن يتوجه بعد نجاحه فى مهمته لتلبية طلب ابن أمير الشاش . وبالطبع فكان الموقف سيؤدى حتما إلى حدوث مواجهة بين العرب بقيادة (زياد) وبين جيش الصين بقيادة (كاوشيان كى) Koa shian chi ،وبالفعل وقع الصدام بين الطرفين على نهر طراز فى العام المذكور آنفاً ، وانجلى الموقف عن نصر مؤزر للعباسيين (١) .

وهكذا رأينا كيف افتتح الخليفة العباسى (أبو العباس عبدالله) حكمه بالدبلوماسية ،التى وضحت من خلال مده يد العون لابن أمير الشاش فى صراعه مع القوات الصينية ، بيد أن هذه الدبلوماسية على صعيد آخر قد أعلت من قدر الخلافة العباسية بعد انتصار قواتها على القوات الصينية .

---

* الشاش : بلاد بما وراء نهر سيحون، متاخمه لبلاد الترك

الحموى (ياقوت) : حـ ٣ ، ص ٣٠٨.

ولأن الدبلوماسية مهمة كما قلنا فى جانبها السياسى ، لذلك فإنها قد لعبت دوراً مبرزاً فى تغير سياسة الحكام بتغير مصالحهم وأهدافهم ، ومن ثم فعدو الأمس يمكن أن يصبح صديق اليوم ، كما يمكن لصديق اليوم أن يكون عدو الغد وهكذا ... فهى لعبة السياسة .

وبناء على ذلك نرى أبا جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م) الخليفة العباسى الثانى والمؤسس الحقيقى للدولة ، ما إن بدأ حكمه إلا ومد يد العون لإمبراطور الصين (سوجونغ) su-Tsung للقضاء على ثورة (آنلوشان) AnL,u shan التى اندلعت عام ١٣٦هـ/٧٥٤م على امبراطور الصين الأسبق (يونغ جونغ) .

ومما يذكر أن (آنلوشان) هذا كان حاكما على مدينة صغيرة يقال لها (يون تشو) yun chow ، ثم ارتقى بعد ذلك إلى منصب المحافظ بولاية (هاتونغ) ho-Tung عام ٧٥٠م ، وعندئذ كثر أتباعه من التتار ، ومن هنا شكل خطورة على حكومة الصين ، حتى خشى أحد الوزراء على نفوذه وأبلغ الامبراطور بأمره ، وفى عام ٧٥٤م احتال هذا التأثر لدخول عاصمة الدولة ، وما أن غا الخبر إلى مسامع الامبراطور (يونغ جونغ) حتى أصدر أمره بمنعه من ذلك العمل ، لكن القرار جاء متأخرا ، فقد أعلن (آنلوشان) ثورته ، واستولى على العاصمة الشرقية (لويانغ) lo-yang ، ثم أرسل قواته لمهاجمة العاصمة الغربية (شانغ آن) chang An فى ولاية شانسى ، وحينئذ نادى بنفسه امبراطورا على الصين .

وإزاء هذا الموقف المتأزم فرّ الامبراطور (يونغ جونغ) إلى (بوآن) Pao- An بولاية (سيجوان) sze-chwan ، بينما كان ولى عهده بمدينة (بنليان) pin-Liang ، وحينئذ هرع إليه الوزراء ووجهاء القوم ونادوا به امبراطوراً على الصين ، فتلقب (بسو جونغ) وذلك عام ٧٥٥م. وعلى الفور طلب هذا الامبراطور نجدة القوات الإسلامية له ، وبالفعل جاءه المدد والعون الذى بواسطته تم القضاء على ثورة (آنلوشان) عام ١٣٩هـ / ٧٥٧م . واسترد بذلك الإمبراطور هيبة ملكه التى فقدت (٢).

وهكذا لعبتْ الدبلوماسية دوراً مهماً فى القضاء على تمرد (آنلوشان) واسترداد عرش الإمبراطورية (لسوجونغ) عام ١٣٩هـ / ٧٥٧م ، وإذا كان الأستاذ (بدر الدين) فى كتابه (العلاقات بين العرب والصين) قد أدار جدلا حول صحة هذا الخبر ، وهل هم (الأواغرة) أم العرب ، إلا أنه فى نهاية كلامه توصل إلى إقرار بأن المساعدة تمت للإمبراطور من (الأواغرة) ومن العرب الذين إن لم يكونوا قد أرسلوا من قبل الخليفة نفسه فهم من رعاياه وبأمر منه ، وفى موضع آخر يذكر الأستاذ (بدر الدين) أن الأستاذ (كاركورن) فى كتابه (تاريخ ممالك جين) قد ذكر : أنه فى عهد الامبراطور (سوجونغ) الذى حكم الصين من عام ٧٥٦- ٧٦٢م ، وفد عليه سفير من " خليفة بغداد ، يحمل التحف والهدايا فودعه بالتعظيم الوافر والإكرام الفائق "(٣) . وربما كان هذا السفير قد جاء لتهنئة الإمبراطور بالقضاء على التمرد فى بلاده ، وبذلك يكون مد يد العون لإمبراطور الصين (سوجونع) بما يعبر عن العلاقات الدبلوماسية أمر لايقبل الجدل.

ومما يعمق هذا الرأى أن أهل الصين كانوا على علم بالعباسيين إذ أطلقوا عليهم اسم (خئى تاشى) أى العرب ذوى الملابس السوداء ، تمييزا لهم عن الأمويين الذين كانوا قد عرفوا لدهيم من قبل باسم (بئى تاشى) أى العرب ذوى الملابس البيضاء . وهذا دليل على معرفة أهل الصين بتطور الأوضاع فى الدولة الإسلامية ، كما يذكر أيضا وجود (الفغفورى الصينى) بمدينة سامرا ، مما يدل بمالايدع مجالاً للشك على وجود علاقات بين الخلافة العباسية والصين فى تلك الحقبة الزمنية ، وهاهو قول (أبو جعفر المنصور) عندما فكر فى إنشاء مدينة بغداد " هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيئ ، يأتينا فيها كل ما فى البحر " (٤) . مما يؤكد على وجود العلاقة بين العباسيين والصين .

وإن كان الخليفة (أبو جعفر المنصور) كما رأينا قد أولى (الصين) بعضا من دبلوماسيته السياسية ، فإننا نراه أيضا يولى (الهند) قدرا من هذه الدبلوماسية ؛ فيذكر (ابن عبدربه) فى (عقده) أن الخليفة (ابو جعفر المنصور) وقع فى كتاب أتاه من (عيينة بن موسى بن كعب) عامله على السند " يخبره أن جنداً شغبوا عليه وكسروا اقفال بيت المال فأخذوا أرزاقهم منه : فوقع : لو عدلت لم يشغبوا ولو وفيت لم ينهبوا " (٥)

وبالرغم من أنه رد قليل الكلمات إلا أنه كثير المعانى ؛ إذ يوصى فيه (المنصور) عامله (عيينة) بعدم استخدام القسوة والعنف مع الرعية ، بل عليه أن يشيع العدل فيهم ، ويوفى لهم حتى تتم الألفة ويتمكن الاستقرار بما يخدم مصلحة الدولة العباسية .

وفى عام ١٥١هـ وإزاء ظهور العلويين (بالسند) وتعاون (عمر بن حفص) واليها معهم ، عتب المنصور عليه ، وحينئذ خشى (عمر) على نفسه ، فسفر بينه وبين (المنصور) رسول ؛ فى محاولة منه لتخفيف الضغط على ذلك الوالى ، لكن (المنصور) أمر بضرب عنق هذا الرسول لتواطئه فى الموقف ، كما أمر بعزل (عمر بن حفص) عن السند وتوليته على افريقية ، وإسناد ولاية السند (لهشام بن عمرو التغلبى) وأوصاه بالاجتهاد فى القبض على (عبدالله بن محمد بن عبداله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب) (٦)..

وعندما رأى (المنصور) بعض التقاعس من (هشام) فيما كلفه به استحثه على ذلك ، وما أن قتل العلوى المذكور على أيدى (سفنجا) التغلبى أخا هشام حتى أخبر الأخير (الخليفة المنصور) بذلك ، وعند ئذ بعث إليه (المنصور) يشكره (٧).

وتلك دبلوماسية من (المنصور) فى معاملة عماله بالسند ؛ عتاب للأول ، وشكر للثانى وحتى بعد عزل الأول أسند إليه أمر افريقية ، وربما كان ذلك يرجع إلى أمرين ؛ أولهما : محاولة احتواء موقف العلويين حتى لايتفاقم خطرهم ويكثر أتباعهم ، بما يهدد أمن الدولة داخليا ، والثانى : هو رغبة (المنصور) فى هدوء جبهته الشرقية لانشغاله بأمر عبدالرحمن الداخل - صاحب الأندلس - الأموى ، وبأمر الدولة البيزنطية العدو التقليدى للمسلمين .

وإن كانت تلك دبلوماسية المنصور السياسية شرقاً تجاه الصين والهند ، فما هى إذن دبلوماسيته غرباً تجاه الدولة البيزنطية ودولة الفرنجة .

ومما لاشك فيه أن (بيزنطة) كانت العدو التقليدى للدولة الإسلامية وذلك للخلاف الجوهرى بينهما فى العقيدة الدينية ، ومن ثم كان الصراع متجدداً بين الطرفين ، وبالرغم من ذلك فقد تعددت فترات وقف القتال ، تبودلت فيها الرسل ، وعقدت خلالها الاتفاقات ، وفودى بموجبها الأسرى وهكذا ...

وفى العصر العباسى يذكر الطبرى أنه عام ١٣٨هـ فى عهد الخليفة (المنصور) غزا (قسطنطين الخامس) ١٢٤-١٥٩هـ /٧٤١-٧٧٥م أراضى آسيا الصغرى ، ودخل مدينة (ملطية) عنوة بعد أن خرب سورها ، وبالطبع لم يكن ليسكت (المنصور) على ذلك ؛ فأغزا الصائفة كلا من (صالح بن على ، والعباس بن محمد) عام ١٣٩هـ فتوغلا فى آسية الصغرى ، وأعادا بناء ماخرب من ملطية . ثم مالبث أن توقف القتال ، وتم الفداء بين الطرفين ، وعن ذلك يقول الطبرى " وفى هذه السنة كان الفداء الذى جرى بين المنصور وصاحب اروم ، فاستنقذ المنصور منهم أسراء المسلمين " (٨) .

وربما انتهج المنصور تلك الدبلوماسية ؛ لإنشغاله كما أوضحنا من قبل بأمر العلويين لما فى ذلك من خطورة على دولته .

وفى عام ١٤٥هـ شرع (المنصور) فى بناء مدينة (بغداد) ؛ لكى تكون حاضرة لبلاده ، وقد جلب إليها المهندسين ، والعمال والصناع من

أماكن عدة ليسهموا فى ذلك البناء ، وما أن انتهى من بنائها حتى وفد عليه رسول من بيزنطة ؛ وفى ذلك يقول الخطيب البغدادى .

جلس (المنصور) يوماً " فقال للربيع : انظر من بالباب من وفود الملوك فادخله ، قال : قلت وافدا من قبل ملك الروم . قال : أدخله . فدخل فبينا هو جالس عند أمير المؤمنين ، إذ سمع المنصور صرخة كادت تقلع القصر فقال : ياربيع ينظر ماهذا ، قال : ثم سمع صرخة هى أشد من الأولى . فقال ياربيع ينظر ماهذا ، قال : فخرج الربيع ثم دخل فقال : يا أمير المؤمنين بقرة قربت لتذبح فغلبت الجازر وخرجت تدور فى الأسواق ، فأصغى الرومى إلى الربيع يتفهم ماقال ، ففطن المنصور لإصغاء الرومى ، فقال : ياربيع أفهمه قال فأفهمه . فقال الرومى : ياأمير المؤمنين إنك بنيت بناءلم يبنه أحد كان قبلك وفيه ثلاثة عيوب قال : وماهى ؛ قال : أما أول عيب فيه فبعده عن الماء ولابد للناس من الماء لشفاهم ، وأما العيب الثانى فإن العين خضرة وتشتاق إلى الخضرة وليس فى بنائك هذا بستان ، وأما العيب الثالث فإن رعيتك معك فى بنائك ، وإذا كانت الرعية مع الملك فى بنائه فشا سره . فتجلد عليه المنصور فقال له : أما قولك فى الماء فحسبنا من الماء مابل شفاهنا ، وأما العيب الثانى : فإنا لم نخلق للهو واللعب ، وأما قولك فى سرى فمالى سر دون رعيتى " (٩) .

وتلك دبلوماسية مزدوجة من الطرفين ؛ فالمنصور يستمع إلى كلام رسول بيزنطة الذى انتقد فيه بناء بغداد دون أن يناله أذى ، وبيزنطة كانت قد أرسلت رسولها إلى بغداد من باب الدبلوماسية ، إما للتهنئة على بناء بغداد ،

وإما لانشغالها بأعدائها فى أوربا ، وبالتالى رغبت فى عدم فتح جبهة عداء مع العباسيين .

وفى الأعوام من ١٥٢ حتى ١٥٥هـ لم يتوقف نشاط العباسيين ضد البيزنطيين ، حتى اضطر الإمبراطور(قسطنطين الخامس) إلى طلب الصلح مع المنصور عام ١٥٥هـ على أن يؤدى الجزية له (١٠) .

ومما يذكر من دبلوماسية (المنصور) أيضا أنه تبادل الرسل مع (بيبن) القصير pepin the Short ملك الفرنجة ، بما يخدم مصلحة الدولتين (١١).

وهكذا رأينا ذلك الجهد الملحوظ لأبى جعفر المنصور فى ميدان الدبلوماسية السياسة ، شرقا وغرباً على السواء ، ليثبت أركان دولته ، ويحمى حدودها قدر جهده وطاقته ، وفى عام ١٥٨هـ توفى المنصور ليخلفه ولده (المهدى) فى حكم الدولة العباسية .

وما أن ارتقى الخليفة المهدى الحكم إلا وقد وجه جهوده المكثفة للنيل من البيزنطيين ؛ إذ جرد على بلادهم العديد من الحملات فى أعوام ١٦٠ ، ١٦٣، ١٦٥هـ ؛ وفى الأخيرة تمكن (هارون الرشيد) ولد المهدى من الوصول إلى سواحل البسفور ، مما اضطر الامبراطورة (ايرين) – أرملة ليو الرابع والوصية على ابنها قسطنطين السادس – إلى انتهاج الدبلوماسية فى هذا الموقف لتخفيف الضغط على بلادها . وأرسلت فى هذا الشأن سفراءها إلى (هارون) فى طلب الصلح . ونترك الحديث للطبرى فيقول : " سارهارون حتى بلغ خليج البحر الذى على القسطنطينية ، وصاحب الروم

يومئذ أغسطة إمراة إليون ، وذلك أن ابنها كان صغيرا قد هلك أبوه وهو فى حجرها ، فجرت بينها وبين هارون بن المهدى الرسل والسفراء فى طلب الصلح والموادعة وإعطائه الفدية ، فقبل ذلك منها هارون ، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له ، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق فى طريقه ... فأجابته إلى ماسأل ، والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينار ، تؤديها فى(نيسان) الأول فى كل سنة ، وفى (حزيران) ، فقبل ذلك منها ، فأقامت له الأسواق فى منصرفه ، ووجهت معه رسولاً إلى المهدى بما بذلت على أن تؤدى ماتيسر من الذهب والفضة ... وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين ، وسلمت الأسارى " (١٢)

وبهذه الكلمات ، يكون الطبرى قد أوضح تماما العلاقات الدبلوماسية فى المجال السياسى التى انتهجت بين الخليفة المهدى بن المنصور ، وبين (ايرين) امبراطورة الدولة البيزنطية ، والتى نتج عنها وقف القتال ، وتوقيع هدنة ثلاث سنوات ، ودفع جزية من قبل بيزنطة ، وتقديم الخدمات اللازمة للقوات الاسلامية .

وما من شك فقد أعلت هذه الدبلوماسية من قدر الخليفة (المهدى) ومن هيبته بين الملوك ، ولاأدل على ذلك من أنه حينما أرسل إليهم رسله للدخول فى طاعته ، أجابه إلى ذلك العديد منهم مثل : ملك (كابل) ، وملك (طبرستان) ، وملك (السند) ، وملك (طخارستان) ، وملك (فرغانة) ، وملك (أُشروسنة)، وملك (سجستان) ، وملك (الترك) ، وملك (التبت) ، وملك (الصين) ، وملك (الهند) ، وغير ذلك من الملوك (١٣).

وفي عام ١٧٠هـ اعتلى (هارون الرشيد) حكم العباسيين ،فعمل عندئذ على توطيد أركان دولته تارة بالدبلوماسية ، وتارة بالحرب حسبما يتطلب الموقف ، فنراه فى عام ١٨١ هـ يتوجه على رأس جيوشه إلى أراضى الدولة البيزنطية ،مفتتحاً حصن (الصفصاف) * ، وفى نفس العام أغزى عبدالملك بن صالح تلك الأراضى حتى وصل إلى (انقرة)* ، وافتتح (مطمورة)*(١٤).

لكن الامبراطور البيزنطى (نقفور) كان له رأى آخر؛ إذ نقض فى عام ١٨٧هـ الصلح الذى كان قد أبرم من قبل عام ١٦٥هـ بين (هارون الرشيد) وبين (ايرين) امبراطورة بيزنطة السابقة ، وأرسل بهذا الصدد

---

* الصفصاف :

كورة من ثغور المصيحة بأرض الروم .

الحموى (ياقوت) : معجم البلدان ،حـ ٣ ،ص ٤١٣ .

* أنقرة :

اسم للمدينة المسماه أنكورية فتحها المعتصم فى طريقه إلى عمورية ببلاد الروم .

الحموى (ياقوت) : المصدر السابق ،حـ ١ ،ص ٢٧٢ .

* مطمورة :

بلد فى ثغور بلاد الروم بناحية طرسوس .

الحموى (ياقوت) : المصدر السابق ، حـ ٥ ، ص ١٥١.

كتابا الى (هارون) جاء فيه " من نقفور ملك الروم ، إلى هارون ملك العرب ، أما بعد ، فإن الملكة التى كانت قبلى ، أقامتك مقام الرخ (من قطع الشطرنج الكبار) ، وأقامت نفسها مقام البيدق (من قطع الشطرنج الصغار) ، وحملت إليك من أموالها ماكنت حقيقا بحمل أمثالها إليها ، لكن ذلك ضعف النساء ، وحمقهن ؛ فإذا قرأت كتابى فاردد ماحصّل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك " (١٥) .

وعندما قرأ الرشيد كتاب (نقفور) غضب غضبة شديدة من ذلك الأسلوب الاستفزازى ، وكتب إليه على الفور مانصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم : من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ماتراه دون أن تسمعه والسلام " (١٦) ، وبتغيير بسيط أورد ذلك الرد (ابن الفراء) قائلا :

"بسم الله الرحمن الرحيم": من هارون الرشيد إلى نقفور ملك الروم ، قرأت كتابك يا ابن الفاجرة والجواب ماتراه دون أن تسمع به والسلام " (١٧).

وتلك كلمات موجزة أنبأت عن حدث ضخم ؛ إذ توجه (هارون الرشيد) مسرعا على رأس قواته حتى أناخ بباب (هرقلة) * ،فافتتحها

---

* هرقلة :

مدينة ببلاد الروم سميت بهرقلة بنت الروم بن اليفزبن سام بن نوح غزاها الرشيد وسبى ابنة بطريقها .

الحموى (ياقوت) المصدر السابق ، حـ ٥ ، ص ٣٩٨.

وغنـم ، وخـرب وحـرق مـالم يـرق له ولايتفق مع سياسته وعندئذ طلب (نقفور) الصلح والموادعة على خراج يؤديه فـى كل سنة فأجابـه الخليفـة هارون إلى طلبه (١٨) .

وعندما هم (هارون الرشيد) بالعودة إلى بـلاده ، واقترب مـن بلـدة الرقة * ، نقض (نقفور) العهد ، وخـان الميثـاق ، مستغلا وعكـة قد ألمـت بالرشيد حينذاك فضلا عن شدة برودة الجو معتقدا أن ذلك سيحول دون أوبـة (الرشيد) ورجاله إليه وعقابه على فعلته تلك .

وعندما خشى أصفياء الرشيد من إبلاغه بالموقف ؛ رفع هذا التحـرج وزيـره (يـحيى بن خـالد) محتـالا فيـه بشـاعر مـن جنده يكنـى (أبـا محمد عبدالله بن يوسف) قائلاً .

نقض الذى أعطيته نقفور

وعليه دائرة البوار تـدور

أبشر أمير المؤمنين فانـه

غنم أتاك به الإله كبيـــر

---

* الرقة :

مدينه مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة ايام ، وهى من بلاد الجزيـرة لأنها بجانب الفرات الشرقى .

الحموى (ياقوت) : معجم البلدان ، حـ٥ ،ص ٧٧.

فلقد تباشرت الرعية إن أبى

بالنقض عنه وافد وبشيـــر

وقال :

نقفور إنك حين تغدر إن نأى

عنك الإمام لجاهل مغـــرور

أظننت حين غدرت أنك مفلت

هبلتك أمك ماظننت غـــرور

إن الإمام على اقتسارك قـــادر

قربت ديارك أم نأت بـــك دور

ليس الإمام وإن غفلنا غافـــلا

عما يسوس بحزمه ويديـــر

ملك تجرد للجهـــاد بنفســـه

فعدوه أبدا به مقهـــــور(١٩)

وقال " أبو العتاهية .

قضى الله أن يصفو لهارون ملكه

وكان قضاء الله فى الخلق مقضيا

تحلبت الدنيا لهارون بالرضـــا

فأصبح نقفور لهارون ذميـــــا

وقال التيمى .

خان العهود ومن ينكث بها فعـلى

حوبائه لا على أعدائه نكثـــــا

فلما سمع الرشيد بهذه الأشعار قال : أوقد فعل (نقفور) ذلك ، وأسرع بالكرة إليه حتى أناخ ببلاده معاتبا إياه على فعلته ، ولـم يـبرح مكانـه حتـى حقق مـا أراد ، وفى ذلك قال ابو العتاهية .

غدا هارون يرعد بالمنايــا

ويبرق بالمذكرة القضـــاب

ورايات يحل النصر فيهـــا

تمر كأنها قطع السحـــاب

أمير المؤمنين ظفرت فاسلم

وأبشر بالغنيمة والإيـــاب (٢٠)

وفـى عـام ١٩٠هـ ولقطـع الطريـق علـى (نقفـور الأول) وإنهـاء مهاتراته ؛ حشد (هارون الرشيد) حوالـى : مائـة وخمس وثلاثيـن ألفـا مـن قواته ، وتوجه بها إلى الأراضى البيزنطية ، فافتتح (هرقلة) فى شـوال مـن العام المذكور ، ثم ولى (حميد بن معيوف) سواحل بحر الشام ، فبلغ (حميد) جزيرة (قبرص) إذ دخلهـا وسبى أهلهـا ، بعد ذلـك توجـه (الرشـيد) إلـى

(الطوانه) فتوقف بها قليلا ، ثم رحل عنها تاركا عليها (عقبة بن جعفر) آمراً إياه ببناء منزل هناك (٢١).

وإزاء ذلك أحس (نقفور) بخطورة (الرشيد) عليه وتحرج مركزه، فآثر السلم ؛ وبعث بالخراج والجزية له عن رأسه وولى عهده وبطارقته وجميع أهل مملكته ؛ خمسين ألف دينار ، منها أربعة عن رأسه ، واثنين عن رأس ابنه ، فقبل الرشيد منه ذلك ، وكفّ عنه وتلك دبلوماسية ماهرة ، إذ أنه حقق ما أراد فلماذا لم يوقف القتال .

بل لم تتوقف دبلوماسيه (الرشيد) عند هذا الحد ؛ إذ أجاب (نقفور) إلى طلب خاص بإبنه فى جارية له من سبى هرقلة ، وذلك نبل دبلوماسي من الرشيد سوف نزيده إيضاحا عند حديثنا عن الدبلوماسية فى الميدان الإجتماعى .

المهم أن الدبلوماسية لعبت دورها فى الصراع بين هارون الرشيد ، ونقفور ؛ إذ توقف القتال وعقد الصلح بين الطرفين على ألا يُخرّب الرشيد (ذا الكلاع) وصملة ، وحصن سنان وعلى ألا يُعَمّر نقفور هرقلة ، وأن يحمل إلى الرشيد ثلاثمائة ألف دينار (٢٢).

الرشيد والتوازن الدولى .

بنظرة عابرة على خريطة العالم السياسية فى عهد (هارون الرشيد)، يمكن التمييز بين أربعة قوى رئيسية كان لها أثرها فى صنع أحداث التاريخ وقتئذ ؛ وهى الخلافة العباسية فى بغداد ، والدولة الأموية بالأندلس ، والامبراطورية البيزنطية ، والدولة الكارولنجية (الفرنجة) فى إكس لاشابل

(آخن) . هذا بالاضافة إلى بعض القوى السياسية الأخرى ، كالصين والهند والخزر وغير ذلك .

ومما لاشك فيه أن القوى الأربعة السالفة الذكر كانت تمثل خطوط تماس لدائرة واحدة ، هى دائرة المصالح الخاصة لكل منها ، وعلى ذلك كان لابد من التحالف والتضاد بحكم المصلحة الخاصة فيما يمكن أن نطلق عليه سياسة المحاور ، أو التوازن الدولى .

فالخلافة العباسية كما رأينا دخلت فى صراع طويل مع الامبراطورية البيزنطية ، منذ أيام الخليفة المهدى وحتى عهد هارون الرشيد وهلم جرا ... وبالرغم من تعدد فترات السلام ، وعقد العديد من معاهدات الصلح إلا أن العداء كان مستحكما بين الطرفين ، ولم تكن بيزنطة لتشترى السلام إلا لضعف يدب فى أوصالها ، أو لعدو خارجي يهدد أرضها .

ونفس الحال يمكن أن نراه بين الأمويين فى الأندلس ودولة الفرنجة ؛ فالأمويون ينشطون على سواحل بلادهم ويشنون العديد من الحملات البحرية على سواحل الفرنجة ، ففى عام ٧٦٨ م أغاروا على (مرسيليا) ، وفى عام ٧٧٨ م هددوا إيطاليا ، وفى عام ٧٩٣م غزوا (ناربون) ، وآنئذ أضحى التحالف واضحا بينهم وبين بيزنطة ضد الفرنجة ، ويظهر ذلك فى هجومهم على جزر البليار عام ٧٩٨م ، وكانت هذه الجزر قد انتقلت حمايتها من بيزنطة إلى الفرنجة (٢٣).

وفى الفترة من عام ٨٠٦ حتى ٨١٥م قاموا بسلسلة من الهجمات المركزة على ممالك الفرنجة ؛ إذ طردوا عام ٨٠٦م إحدى الفرق الفرنجية

من جزيرة (كورسيكا) ، ومن عام ٨٠٨ حتى ٨١٠م كانت لهم غارات متعددة ، وفى عام ٨١٣م أغاروا على (نيس) وشفيتافكيا Civita vecchia وكورسيكا ، وفى عام ٨١٥م هجموا ثانية على جذر البليار ، وحينئذاصطدموا هناك على مقربة من (ميورقة) بالأسطول الفرنجى بقيادة (امبورياس) الذى استنقذ خمسمائة كورسيكى من أسر المسلمين ، وفى عام ٨١٥م غزا أمويو الأندلس جزر البليار مرة أخرى (٢٤) .

وبهذه الصورة التى أوضحها لنا (ارشيبالد لويس) نكون مقتنعين تماما بالموقف العدائى بين كل من أموى الأندلس والدولة الكارولنجية فى عهد شارلمان .

ومن هنا فإن التقارب بطبيعة الحال لايجمع الضدين ، بل يجمع إحداهما إلى أحد الضدين الآخرين ، ولما كان التحالف واضحاً بين بيزنطة والأمويين بالأندلس فإن التقارب بين الخلافة العباسية ودولة الفرنجة أصبح أمراً محتملاً من أجل المصالح الخاصة .

إذ أنه من مصلحة الخلافة العباسية أن ينشغل الفرنجة بأموى الأندلس، حتى تتفرغ لصراعها المتكرر مع البيزنطيين فضلا عن اضطلاعها بمهمة حماية مكاسبها الحضارية ، بينما كان من مصلحة (شارلمان) أن تنشغل عنه بيزنطة للعداوة السياسية بينهما ، فضلا عما يقع عليه من حماية بلاده من الخطر الأموى بالأندلس وهكذا ... فلاح عندئذ فى الأفق مايعرف بسياسه التوازن الدولى أو سياسة المحاور كما يسميها البعض .

وقد أكد المسعودى فى مروجه على وجود صراع بين الأمويين بالأندلس ، وبين الفرنجة حين قال " وأشد ماعلى الأندلس فى الأمم المحاربة لهم الجلالقة ، كما أن الفرنجة حرب لهم " (٢٥).

وعن سياسة التحالف السالفة الذكر تمخض عدد من السفارات بين (هارون الرشيد) وشارلمان ، ويذهب البعض إلى وجود مثل هذه السفارات منذ أيام الخليفة (المنصور) الذى استقبل وفدا من (بيبن) القصير pepin the short ملك الفرنجة عام ١٤٧هـ / ٧٦٥م ،فأعاد (المنصور) هذا الوفد مصحوبا ببعض سفرائه المحملين بالهدايا ، حيث وصلوا بعد ثلاث سنوات مارين فى البحر إلى (مرسيلية) ، ثم أمضوا الشتاءفى متز باللورين ، وأقاموا فى قصر (ساس) بضفاف اللوار ، ثم عادوا بعد ذلك فى البحر عن طريق مرسيلية (٢٦) .

وقد ثار جدل كبير حول علاقة (هارون الرشيد) بشارلمان ؛ وربما يعود منشوه إلى تفرد المصادر اللاتينية بالإشارة إلى هذه العلاقة ، بينما أحجمت المصادر العربية عن ذكرها .(فاينهارد) فى كتابه سيرة شارلمان يذكر أن ثمة علاقة ودية كانت لسيده " مع هارون Arons الرشيد ملك الفرس الذى حكم معظم بلاد الشرق باستثناء الهند ، فقد آثر هذا الأمير مودة شارلمان على كل ملوك الأرض وحكامها ، وبنى علاقته معه على الإحترام والكرم ، وعندما قام السفراء الذين أرسلهم شارلمان لزيارة القبر المقدس ومكان قيام سيدنا ومخلصنا – بالمثول بين يدى هارون الرشيد ومعهم الهدايا

نقلوا له رغبات سيدهم شارلمان غير أن الرشيد لم يمنحهم ماطلبوه فقط وإنما أعطاهم حق امتلاك القبر المقدس ، تلك البقة المباركة " (٢٧) .

ويضيف (اينهارد) قوله " وعندما عاد السفراء إلى بلادهم ، بعث الرشيد سفراءه معهم إلى شارلمان يحملون له الهدايا الفاخرة إضافة إلى مواد وعطور ومنتوجات قيمة أخرى من البلاد الشرقية ، وقبل ذلك بسنوات قليلة كان شارلمان قد طلب من هارون الرشيد فيلا ، وبعث الرشيد إليه بالفيل الوحيد الذى كان يملكه " (٢٨) .

ومن خلال هذه الكلمات التى أوردها (اينهارد) مولى شارلمان نراه ؛ لايستطيع اخفاء تعصبه إذ جعل الخليفة (هارون الرشيد) الزائع الصيت بمثابة أمير ، فضلا عن اتهامه إياه بمنح الفرنجة بعض الامتيازات فى بيت المقدس ، وهذا بالطبع أمر يتنافى مع معطيات العصر آنذاك ، ولايتفق وروح الجهاد التى كان عليها ذلك الخليفة فى إعلاء كلمة الله .

ولكن على صعيد آخر أكد كلام (اينهارد) وصول السفرا من جانب (شارلمان) إلى هارون الرشيد ، والمثول بين يديه مقدمين الهدايا ، ناقلين تحيات سيدهم إليه ، كما أوضح عودة هؤلاء السفراء بصحبة بعض سفراء الخليفة محملين بهدايا الشرق من عطور وغيرها .

ولعل (وليم الصورى) كان أكثر حيدة من اينهارد فيماأورده حيث قال "إن علاقات شارلمان مع ملك الفارسيين هارون صاحب السلطان على كافة أنحاء العالم - باستثناء الهند - كانت علاقات كريمة حتى أن الأمير

(شارلمان) كان يؤثرة بمودته على سائر ملوك الدنيا وحكامها ، وكان يرى أنه لاينبغى أن يكون التعظيم والإجلال إلاّ لهُ وحده دونهم جميعا " (٢٩) .

وهنا نرى أن وليم الصورى قد وضع كلاً من الخليفة هارون ، وشارلمان فى وضعهما الطبيعى ؛ فالأول هو صاحب السلطان والسيادة على كافة أنحاء العالم ، تشخص إليه الأبصار ، وتخطب وده البلدان ملوكها وأمراؤها ، والثانى هو أحد هؤلاء الأمراء الذين يخطبون ود الخليفة .

وقد قام الدكتور عبدالعزيز الدورى بتحليل هذه العلاقة قائلا :تخلو المصادر الشرقية إسلامية ومسيحية من الإشارة إلى أية صلة بين الرشيد وشارلمان ، وتنفرد المصادر اللاتينية بتلك العلاقة ؛ جاء ذلك فى كتاب حياة شارلمان VITA CAROLI (لاينهارد) ، وكتاب : الأخبار الملكية لسان كال .ST.GALL,ANNALES AEGNI FRANCORUM الأول معاصر لشارلمان ومولاه ، والثانى بعده بحوالى خمسين عاما ، كما أيد العلاقة بكلر Buckler فى كتابه Haroun Al-Rashid and Charles theGreat p.170-178 وغير ذلك من المؤرخين .

وقد ذكر الدكتور الدورى أن شارلمان أرسل وفدين إلى الرشيد ، عامى ٧٩٧، ٨٠٢م ،ورسولا إلى بطريق القدس عام ٧٩٩م ، ورد الرشيد ببعثه وفدين عامى ٨٠١، ٨٠٧م ، بينما أرسل بطارقة القدس أربع سفارات على الأقلّ إلى شارلمان .

وكان وفد عام ٧٩٧م إلى الرشيد يتكون من ثلاثة أفراد ؛ لانتفريد ، وسيجموند ، ويهودى اسمه اسحق مترجما لهما ، وقد قضى الوفد فى مهمته ثلاث سنوات ، توفى فيها الأول والثانى وعاد الثالث ، وهو اسحق معه فيل إلى شارلمان ، بينما كان وفد الرشيد عام ٨٠١م إلى شارلمان يتكون من فردين أحدهما فارسى عن الخليفة ، والثانى مغربى عن ابراهيم بن الأغلب ، وأخبرا شارلمان برجوع (اسحق) مع الفيل وبعض الهدايا .

ويذكر الدكتور الدورى أنه أثناء تواجد وفد شارلمان عام ٧٩٧م لدى الرشيد ، تبودلت الهدايا والصلات الودية بين(بطريق القدس) و(شارلمان) ، وقد بدأ بذلك البطريق ؛ إذ أرسل راهبا ببعض هداياه إلى شارلمان ، وردا على ذلك أرسل شارلمان مع الراهب (القسيس زكريا) يحمل هباته إلى الأراضى المقدسة ، وفى عام ٨٠٠ م عاد (زكريا) إلى (شارلمان) بصحبة راهبين عن (بطريق) القدس يحملان معهما مفاتيح كنيسة القيامة ومفاتيح بيت المقدس إلى شارلمان .

وما إن أتىٰ عام ٨٠٢ م حتى أرسل (شارلمان) وفده الثانى إلى الرشيد ، وقد عاد هذا الوفد عام ٨٠٦م ،ومما يذكر أنه أثناء تواجد الوفد بالشرق أرسل(جرجيس) بطريق القدس راهبين إلى (شارلمان) وصلا عام ٨٠٣م ، وفى عام ٨٠٧م وصل بلاط شارلمان رسول الخليفة هارون الرشيد ويدعى (عبدالله) ، وراهبان عن البطريق (توماس) ، وكان مع رسول الخليفة حيوان ملون بديع وأقمشة حريرية وعطور وتمر وساعة مائية عجيبة وأوانى نحاسية (٣٠) .

وقد ناقش الدكتور (الباز العرينى) فى ملحق بكتاب (شارلمان) - الذى عربه عن كارلس ديفيز - علاقة الرشيد بشارلمان ؛ مشيرا إلى تبادل السفارات بين الطرفين ، وكان من بين هدايا الشرق إلى شارلمان الفيل ، والساعة المائية الغريبة التى كانت تدق الساعات وفى دائرتها اثنتا عشرة نافذة يخرج منها فى الساعة الثانية عشرة فرسان ، وما كادوا يخرجون حتى تتغلق وراءهم النوافذ ، ثم تتفتح مرة أخرى لكى يعودوا أدراجهم .

كما ذكر الدكتور الباز العريني أن بطريرك بيت المقدس في عام ٧٩٩م أرسل إلى شارلمان عددا من المخلفات المقدسة ، وفي عام ٨٠٠م أرسل إليه علم القبر المقدس ومفاتيحه (٣١).

كما علق على هذه الرواية عدد من المؤرخين نذكر منهم : الدكتور حسن ابراهيم حسن ، وجميل نخله المدور ، وفيليب حتى ، والدكتور أحمد أمين ، والدكتور ابراهيم العدوى ، والدكتور عبدالمنعم ماجد (٣٢) .

وصفوة القول : فإن الظروف السياسية للقوى التي عاصرت هارون الرشيد ، وانجذاب كل واحدة منها نحو مصالحها الخاصة ، وإشارة المسعودى عن الصراع بين الأمويين بالأندلس وبين الفرنجة ، والصراع المتكرر بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية ، وظهور دولة الأدارسة الشيعية بتونس ، كلها إشارات تقودنا إلى الاعتقاد بوجود هذه العلاقة ، وإن لم تتوافر في المصادر العربية ، فربما كان ذلك في مصلحة الخلافة العباسية ومن باب السرية الواجبة .

وبعد وفاة (هارون الرشيد) عام ١٩٣م خلفه في حكم العباسيين ابنه (محمد الأمين) ، الذى استمر حكمه حتى عام ١٩٨هـ قضاها في صراعات داخلية انتهت بمقتله ؛ ليخلفه عندئذ أخوه (عبدالله المأمون) الذى واكب سياسة أبيه تجاه البيزنطيين ؛ إذ أنه في عام ٢١٥هـ شن هجوما على أراضى الدولة البيزنطية حتى وصل إلى طرسوس * وافتتح حصن ماجدة وقرة ، وقد طلب

* طرسوس : مدينة كبيرة عامره غاية في العمارة والخصب .

الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٤٧.

أهل (قرة) الأمان فأجابهم إلى طلبهم .

وفى عام ٢١٦هـ كرّ المأمون ثانية على الأراضى البيزنطية ، فوافته حينذاك وهو بأذنة * رسل الامبراطور البيزنطى (تيوفيل بن ميخائيل) تخطب وده ، كما وجه الامبراطور خمسمائة رجل من أسارى المسلمين إلى المأمون ، وكان المأمون فى تلك الأثناء قد دخل الأراضى البيزنطية ، ونزل على (انطيغوا) فصالح أهلها ، كما صالح أهل (هرقلة) ، ووجه أخاه أبا اسحق المعتصم فاتتح ثلاثين حصنا ، ثم عاد بعد ذلك المأمون إلى دمشق (٣٣).

وربما أراد الامبراطور البيزنطى هذه المودة لظروف ألمت ببلاده فخشى أن يقع بين شقى رحى فراسل المأمون .

وفى عام ٢١٧هـ شن المأمون هجوما على الأراضى البيزنطية ، ومكث بلؤلؤة مائة يوم ، ثم رحل عنها تاركا عجيفا بن عنبسة – أحد قواده – عليها ، فخدعه أهلها وأسروه ثمانية أيام ، ثم أخرجوه ، وحينئذ توجه (ثيوفيل) إلى لؤلؤة ، فأحاطت قواته بعجيف ،وهنا وجه المأمون جنده تجاهه، وما إن تنامى ذلك إلى مسامع (ثيوفيل) حتى رحل عن لؤلؤة ، وعلى أثر ذلك خرج أهل لؤلؤة بأمان إلى عجيف (٣٤).

---

* أذنه : بفتح اوله وثانيه بلد من الثغور الشاميه قرب المصيصه .

الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧.

ولكى يقى (ثيوفيل) نفسه من بأس الخليفة المأمون كتب إليه فى العام المذكور يسأله الصلح ، وأرسل كتابه مع وزيره ، وقد جاء فيه :

" أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما ، ولست حريا أن تدع الحظ يصل إلى غيرك حظا تحوزه إلى نفسك ، وفى علمك كاف عن إخبارك ، وقد كنت كتبت إليك داعيا إلى المسالمة ، راغبا فى فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا ؛ مع اتصال المرافق والفسح فى ١٠لمتاجر وفك المستأسر ، وأمن الطرق والبيضة ، فإن أبيت فلا أدب لك فى الخمر ، ولا أزخرف لك فى القول ، فإنى لخائض إليك غمارها ، آخذ عليك أسدادها ، شأن خيلها ورجالها ، وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة، وأقمت بينى وبينك علم الحجة والسلام " (٣٥).

فرد المأمون علية قائلا:" **أما بعد ؛ فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة ، ودعوت إليه من الموادعة ، وخلطت فيه من اللين والشدة ؛ مما استعطفت به ، من شرح المتاجر ، واتصال المرافق ، وفك الأسارى ، ورفع القتل والقتال ، فلولا مارجعت إليه من أعمال التؤده والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة ، وإلا اعتقد الرأى فى مستقبله إلا فى استصلاح ما أوثره فى معتقبه ، لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أكمل**

البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثقلكم ، ويتقربون إلى الله بدمائكم ... ثم أوصل إليهم من الإمداد ، وأبلغ لهم ، كافيا من العدة والعتاد ، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة ... موعدهم إحدى الحسنيين : عاجل غلبة أو كريم منقلب ، غير أننى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة ، من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية ، فإن أبيت ففدية توجب ذمة ، وان تركت ذلك ففى يقين المعاينة لنعوتنا مايغنى عن الإبلاغ فى القول، والاغراق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى " (٣٦)

وبالطبع هذا دليل قاطع على تواجد الدبلوماسية السياسية بين الخليفة المأمون ، والامبراطور البيزنطى (ثيوفيل) والتى وإن دلت على شيئ فإنما تدل على سبق حضارى ، وتفهم للمواقف وتقديرها ، دون الاخلال بوضع الدولة الاسلاميه .

وفى عام ٢١٨هـ توفى (المأمون) فخلفه فى الحكم أخوه (المعتصم) الذى سار على نهج سابقيه ، فى سياساتهم تجاه البيزنطيين ، فعندما اعتدى (تيوفيل بن ميخائيل) الامبراطور البيزنطى على أهل (زبطرة) عام ٢٢٣هـ ، وعاث فيهم فسادا ، تجهز له المعتصم بقواته وهاجم بلاده وافتتح عمورية – التى قال فيها الشعراء الكثير – وأثناء ذلك حاول ثيوفيل أن يسلك طريق الدبلوماسية ، ووجه من قبله رسولا إلى المعتصم عند نزوله عمورية ، لكن (المعتصم) احتجزه على مقربة منها حتى تم الفتح ، وربما نهج

المعتصم ذلك لما نال أهل (زبطره) من القتل والسبى والتمثيل من قبل الامبراطور .(٣٧)

وبعد وفاة المعتصم عام ٢٢٧ هـ خلفه ابنه (هارون الواثق) فى حكم العباسيين ، وفى عهده وبالتحديد عام ٢٣١هـ تم الفداء بينه وبين البيزنطيين ، بعد أن وفدت إليه رسل (ميخائيل بن تيوفيل) طالبة منه ذلك ، وقد كلف الواثق خادمه (خاقان) باتمام هذا الفداء ، فوجه (خاقان) احمد بن أبى قحطبة إلى البلاط البيزنطى ، لاحصاء عدد أسرى المسلمين هناك ، فوجدهم ثلاثمائة رجل ، وخمسمائة إمرأه وصبى ، وبالفعل التقى الطرفان فى يوم عاشوراء من العام المذكور على نهر اللامس قرب طرسوس وقد عقد على النهر جسران ؛ أحدهما للمسلمين يرسل عليه البيزنطيون ، والآخر للبيزنطيين يرسل عليه المسلمون .

وفى رواية أخرى أن مياه النهر كانت مخاضة فيما بينهما يطلق من خلالها أحد الأسرى فيقابله فى منتصف المخاضة أسير الطرف الآخر ، وبوصول كل منهما إلى معسكره يكبر المسلم ويكبر المسلمون ، ويتكلم البيزنطى بكلام دينه ويحييه أهله .

المهم أن الفداء قد تم ، وتلك دبلوماسية توقفت بموجبها الحروب وعاد الأسرى إلى ذويهم (٣٨).

وصفوة القول : فاننا بهذا العرض المتواضع نكون قد أطللنا إطلالة يسيرة على العلاقات الدبلوماسية بين الخلافة العباسية ومعاصريها ، فى المجال السياسى ، وكم كانت هذه العلاقة متعددة ومتنوعة ؛ مابين كتاب

يرسل ، ورسول يبعث ، ووفد يوفد ، وصلح يتم ، واتفاق يعقد ، ومعاهدة تبرم وفداء يتبادل .

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن دبلوماسية الخلافة في المجال الاقتصادى .

*****

الفصل الثانى

فى الميدان الإقتصادى

****

لاشك أن الاقتصاد عماد الدول وكنز ثرواتها ، وموجه سياسات حكوماتها ، والباعث على رفاهية شعبها وأبنائها ، وعلى الجملة فهو عمودها الفقرى للرقى والتقدم المادى ، ولما كان الإسلام نظاما متكاملا فإنه قد شمل كل جوانب حياة الإنسان الدنيوية منها والأخروية ، ونظمها تنظيما دقيقا وفق منهجه فى صالح الفرد والمجتمع ؛ لذلك نراه يحث الإنسان ويحفزه على العمل وطلب الكسب والارتزاق فى الدنيا حسب ما أحل الله له ؛ إذ يقول رب العزة فى سورة القصص " **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولاتنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين** "(٣٩).

ويقول جل شأنه فى سورة الجمعة "**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفحلون** " (٤٠) .

ويقول عز من قائل فى سورة الملك ' **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** " (٤١).

فالإسلام إذن دعوة لاتقتصر على أداء العبادات فحسب ، وإنما تشمل جميع وجوه حياة الإنسان بما يحقق له رقيا وسموا وحياة كريمة ، وفى هذا الشأن يقول الإمام أبو حنيفة النعمان " **طلب الكسب فضيلة كما أن طلب العلم فريضة** " ، **كما وضع الإمام الشيبانى صاحب أبى حنيفة كتابا أسماه " كتاب الاكتساب فى الرزق المستطاب " أوضح فيه أن طلب الكسب واجب على كل مسلم ومسلمة** ، كما بين أنواع المكاسب فى الزراعة والصناعة والتجارة والإجارة ... كذلك أفرد الإمام الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين بابا عن (آداب الكسب والمعاش) مستشهدا فيه ببعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى " **وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ؛ وآخرون يقاتلون فى سبيل الله** " (٤٢) وبذلك وضع الدين الحنيف السعى فى طلب الرزق والكسب فى مرتبة الجهاد . وأخيرا لم يفت العلامة (ابن خلدون) أن يخصص فى مقدمته بابا عن المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع ومايعرض فى ذلك كله من الأحوال (٤٣). مما يؤكد تماما عناية الإسلام بالحياة الدنيا التى بلاشك هى غرس الآخرة .

وانطلاقا من هذا فقد بذل الخلفاء العباسيون جهدهم من أجل النهوض بثروات بلادهم ن وإنماء اقتصاديات دولتهم زراعيا وصناعيا وتجاريا ، مستخدمين فى ذلك كل الوسائل المتاحة . ولعل المرونة والدبلوماسية كانت إحدى هذه الوسائل .

أولا: الزراعـة.

لقد استهل (ابو جعفر المنصـور) جهـود العباسيين الدبلوماسية فـى مجال الزراعة ؛ باستفادته من لقائه بسفير بيزنطة عندما وجه انتقاده (لبغداد) فى ندرة مائها وقلة زروعها ، فأصدر أمره على الفـور (لشـميس وخـلاد) ، بأن يمدا له قناتين من (دجلة) ، ويغرسا له الأشجار ؛ وبالفعل مدت له قنـاتين إحداهما من نهر (دجيـل) الأخذ من(دجلـة) ، والآخـرى مـن نهـر (كرخايـا) الآخذ من (الفرات) ، وتم جر مائهما إلى (بغداد) فى عقود وثيقة من أسـفلها ، محكمـة بالصـاروج والآجـر مـن أعلاهـا ، حتـى دخلـت القنـاتين إلـى المدينـة ونـفذت فـى شـوارعها ودروبـها وأربـاضها تجريـان صيفا وشـتاء دون انقطاع (٤٤) .

كـما أجـرى لأهل (الكرخ) وما اتصل بـه – فـى غـرب بغـداد – عـدة أنهـار منها : **نهر الدجاج** – وسمى بذلك لوقوف أصحـاب الدجـاج عنده – ، ونهـر القلائين ، ونهـر طـابق ، ونهـر البزازين (بـائعى الثيـاب) ، ممـا أدى إلـى إرواء الأراضى وإنماء الزرع بما يعـود بالفـائدة علـى مجـال الزراعـة إحـدى ركائز اقتصـاد الدولة ، كما اعتنى المنصـور بـأرض السـواد – وهـى الواقعـة بين نهـرى دجلـة والفـرات – فشـق فيهـا الـترع والمصـارف ، وأجـرى إليهـا الأنهار (٤٥).

كذلك لم تتوقف جهود الخليفة المنصور عند هذا الحد ، بـل خطـا إلـى الأمام خطوة ثانية ؛ حين أقطع الاقطاعات لبعض أعيان دولتـه ، طـالبا منهـم تعميرها ، فى مقـابل حصـولهم عليهـا إسـكانهم إياهـا مـن بـاب المكافـأة علـى جهودهم .

وتلك مرونة ودبلوماسية فائقة تضاف إلى جهوده السابقة ؛ إذ سرعان ما اتسع نطاق هذه القطائع ، وازدحمت بالسكان ملبية رغباتهم حاملة اسم صاحبها أو الطائفة التى قطنتها .

ومما يجدر ذكره من هذه القطائع :**قطيعة العباس بن محمد بن عبدالله بن العباس** ، على (**البصرة**) **وقطيعة الصحابة** – وهم سائر قبائل العرب من قريش والأنصار ، وربيعة ومضر على (الصراة) ، وقطيعة الربيع ابن يونس) مولى المنصور ، وكان بها تجارا من خراسان من البزازين ، وقطيعة (صالح بن المنصور) (٤٦).

وقد أسدت هذه القطائع دونما أدنى شك خدمات جليلة فى مختلف نشاطات الحياة اليومية لاسيما عندما انتقل مركز الثقل السياسى من بغداد إلى (سامرا) أيام (المعتصم) ، إذ لم يشعر سكان بغداد بأى تأثير على الحركة التجارية أو التعاملات اليومية فى بغداد من جراء هذا النقل .

وقد ذكر القاضى (أبو يوسف) فى خراجه قطائع العراق بقولة :
"**فأما القطائع من أراضى العراق ، فكل ماكان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكنن فى يد أحد** " (٤٧) أى أن المنصور رغم أنه الخليفة لم يعتد على أية أراضى ، بل أقطع التى لم تكن بيد أحد .

ومما يذكر من جهود المنصور أيضا أنه تسهيلا على الزراع ألغى الضريبة النقدية على (الحنطة والشوفان) ، وأحل بدلا منها نظام المقاسمة : وهو دفع الضرائب نوعا بنسبة المحصول (٤٨).

وقد أوضح هذا النظام صاحب كتاب الخراج قائلا : " ولم أجد شيئا أوفر على بيت المال ، ولا اعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ، ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل " (٤٩).

وهكذار أيناكم كان (المنصور) مرنا فى سياسته ؛ حين أجرى المياه إلى بغداد شرقها وغربها على السواء ، وحين أقطع الإقطاعات وألغى الضريبة على بعض النباتات وأوجد بدلها نظام المقاسمة ، فكثر بذلك الانتاج وتنامت المحاصيل وعم الرخاء ، وعلى ضوء ذلك رخصت الأسعار وعنها قال الخطيب البغدادى ."أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد البزاز قال أنبأنا جعفر الخلدى قال أنبأنا الفضل بن مخلد الدقاق قال سمعت داود بن صغير بن شبيب بن رستم البخارى يقول : رأيت فى زمن أبى جعفر كبشا بدرهم ، وحملا بأربعة دوانق ، والتمر ستين رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ، والرجل يعمل بالروزجار فى السور كل يوم بخمس حبات " (٥٠) .

ويأتى الخليفة المهدى بعد أبيه ليؤكد سياسته المرنة ؛ إذ عمم نظام المقاسمة السابق بحيث شمل كل أنواع المحاصيل حسب خصوبه التربة وسهولة ريها أو صعوبته ، وقد قدر بنصف الغلة أوثلثها أو ربعها أو خمسها حسب حالة الأرض وما تتكلفه من جهد كما أقطع المهدى أيضا الاقطاعات

كأبيه ولعل (أرحا البطريق) تعد دليلا على ذلك ، وعلى مدى دبلوماسيته التي سمحت بإقطاع هذا البطريق مستغلا في أراضي الدولة (٥١) .

وما أن تولى هارون الرشيد عرش الخلافة حتى رغب في التخفيف عن رعيته أيضا والحكم فيهم حسب الشريعة السمحة ، لاسيما في الجانب المالي ، فنراه يسند إلى القاضي (أبي يوسف) مهمة تاليف كتاب جامع يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي وغير ذلك (٥٢) . فألف له القاضي هذا الكتاب الذي جاء شاملا لنظام الخراج والجزية والفيئ ، والعشور بما يتفق مع مبادئ الشريعة الإسلامية ، وقد عرف باسم (كتاب الخراج) وذلك لم يكن إلا منتهى الحرص من جانب الخليفة هارون الرشيد حتى لايظلم في دولته أحد سواء كان من المواطنين أم من رعايا الدولة (الذميون) وغيرهم .

وعندما اعتلى (المأمون) خلافة المسلمين نهج نهج أبيه في التخفيف عن رعاياه ؛ ففي عام ٢٠٣ هـ / ٨١٨م تسامح مع أهل الري في مبلغ ألفي ألف درهم من الخراج الذي كان مقررا عليهم ، كما وضع عن أهل خراسان ربع خراجها المقرر لمجاعة ألمت بها حتى طابت أنفسهم فقالوا : ابن اختنا وابن عم النبي صلى الله عليه وسلم .

كذلك أمر في عام ٢٠٤هـ / ٨١٩ م بتخفيض خراج السواد ومقاسمة أهله على الخمسين بدلا من النصف (٥٣)

وتلك في حد ذاتها مرونة ودبلوماسية من أجل النهوض بمستوى اقتصاد الدولة ، وتحسين أوضاع الرعية.

ومما يذكر أنذاك أن محاصيل الدلة قد أصابها التنوع والتعدد فهناك القمح ، والشعير والأرز والشوفان والذرة ، وكذلك القطن والكتان وقصب السكر ، فضلا عن أنواع ثمار الفاكهة والموالح ، ومما يقال أن بطيخ مرو الشاهجان كان ينقل للخليفة المأمون وكذلك الواثق معبأ بالثلج في قوالب من الرصاص (٥٤).

وقد أكد ياقوت الحموى وجود البطيخ في مرو الشاهجان بقوله : "يستوى الشريف والوضيع من مرو في ثلاثة أشياء : الطبيخ النارنك، والماء البارد لكثرة الثلج بها ،والقطن اللين " (٥٥).

هذا عن جهود الخلفاء في مجال الزراعة ننتقل الآن إلى الصناعة .

ثانيا : الصناعة .

فإذا ما انتقلنا إلى الصناعة ركيزة الاقتصاد الثانية لرأينا مابذله خلفاء بني العباس من جهد وفير في هذا المجال .

فها هو الخليفة أبو جعفر المنصور يستقدم حين شرع في تشييد بغداد كما أسلفنا ، المهندسين والصناع والعمال من نجارين وحدادين وبنائين وغيرهم من كل صوب وحدب ، بما يؤسس بنية تحية للصناعة في بلده ربما ينشأ عليها تنظيرا فيما بعد .

ويذكر (هايد) أنه في بغداد والبصرة تم إنشاء مستودعات كبيرة لانعاش حياة جديدة (٥٦) ويقول الدكتور حسن ابراهيم حسن : وكذلك كان للصناعة نصيب كبير من عناية خلفاء العصر العباسى الأول ... فاستخرجوا الفضة والنحاس والحديد والرصاص من مناجم فارس وخراسان ، كما

استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمال فارس ، والقار والنفط من بلاد الكرج (٥٧).

ولقد اشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج وعلى وجه الخصوص أيام الخليفة (المعتصم) ، الذي شيد لها المصانع فى كل من بغداد وسامرا وغيرهما من المدن ، كذلك أنشأ مصانعاً للورق فى عدة مدن جالبا إليها الخبرة الأجنبية من أساتذة وعمال من مصر وغيرها (٥٨) .

والجدير بالذكر أن العصر العباسى شهد نهضة واضحة فى صناعة المنسوجات الحريرية والأطلس ، والسجاجيد والطنافس ، فبرزت (الكوفة) بكوفياتها الحريرية ، و(خوزستان) بمنسوجاتها ، و(تستر) بطنافسها وأطلسها الذى كثيرا ماكسيت به حوائط الكعبة ، كذلك عنى الخلفاء العباسيون بمنتجات (تستر) ، فاستقدموا جماعة من نساجيها ، وانزلوهم غرب بغداد فيما بين دجلة وباب البصرة فى محلة نسبت إليهم تصنع فيها الثياب التسترية (٥٩).

ومما يستلفت النظر أن (تنيس) بمصر ازدهرت بها صناعة الثياب الحريرية المعروفة (بالبدنة) ، والتى كانت ترسل للخلفاء وقد بلغت قيمة الواحد منها ألف دينار ، ويذكر أنه ليس فيها من الغزل سدى ولا لحمة سوى أوقيتين ، أما بقية الثوب فمن الذهب الخالص المحكم الصنعة (٦٠) .

كما اشتهرت بغداد بصياغة الذهب التى برع فيها الفرس من قبل ، وقد تطورت هذه الصناعة تطورا مطردا بلغت فيه من الدقة والجمال مبلغا كبيرا ، حتى أن الصائغين كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، كما كانوا يرسمون على الجامات (الكؤوس) صورا لطيور

تطير فى أعلاها العقبان تنقض عليها ، وهى تحاول جاهدا الافلات منها ، مما يشحذ البصر ويستلفت الانتباه (٦١).

ومما اتسمت به بغداد أيضا كثرة دور الصناعة التى انتشرت بأرجائها، والتى وصلت إلى أربعمائة رحى مائية ، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج ، وعدد كبير من مصانع الخزف ، ويذكر أنه كان لكل حرفة سوقا خاصا بها ، كسوق : الحدادين ، والنجارين ، والبزازين ، هذا وقد أسس الخليفة المنصور سوق الكرخ بين الصراة ونهر عيسى لتكون مركزا للصناعة والتجارة معا (٦٢) .

وهكذا رأينا كيف تعددت الصناعات ببغداد ، ولاشك أنها قد احتاجت إلى مقومات أساسية : كرأس المال والمواد الخام ، والأيدى العاملة ، والخبراء لتوجيهها ، وإن توفرت الأولى فى خزانه الدولة فإن الثانية والثالثة والرابعة احتاجت إلى علاقة الخلفاء الودية للإستفادة منها . ننتقل بعد ذلك للحديث عن جهود الخلفاء فى مجال التجارة .

ثالثا: التجارة.

التجارة ركيزة الاقتصاد الثالثة ، وهى نقل البضائع والسلع من مكان تكثر فيه إلى مكان تندر فيه ، أو يحتاج إليها ، وهى مهنة قديمة مارسها الإنسان منذ زمن بعيد ، وعلى أثرها تنقلت البضائع والسلع بين الحضارات القديمة : كالفرعونية ، واليونانية والهندية ، والفارسية ، والصينية ، والرومانية ، وغيرها .

ومما تجدر ملاحظته أن العرب في العصور الوسطى لعبوا دورا مهما في هذه التجارة ، وأسهموا إسهاما مبرزا فى نقل البضائع والسلع بين الشرق والغرب من الهند والصين إلى الدولة البيزنطية وبالعكس ، وقد مارس (النبى) صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الثلاثة ؛ الأول (أبوبكر وعمر وعثمان) رضى الله عنهم التجارة بشرف وأمانة . بل ويؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه فى غزوة تبوك عام ٩هـ اعتنى بتأمين أيلة (العقبة)- ذلك الميناء الواقع على ساحل البحر الأحمر - على أموالهم ، ومنحهم عهدا بألا يتعرض لسفنهم التجارية وسفن الموالين لهم بأى أذى (٦٣).

ولما كان ظهور الإسلام فى منطقة البرازخ (البحر الحمر ، والأبيض ، والأسود ، وبحر الخزر ، والخليج العربى) ، وكان العالم حينذاك ينقسم إلى مجالين اقتصاديين متنافسين هما المحيط الهندى شرقا ، والبحر المتوسط غربا ؛ فقد قدم الإسلام عندئذ خدمة جليلة إلى هذين العالمين ، بجعلهما عالما واحدا بعد الفتوحات الإسلامية التى انتشرت من حدود الصين شرقا إلى سواحل المتوسط غربا ، بل وإلى أوربا ، فأصبح العالم كله يمثل مجالا اقتصاديا واحدا تروج فيه بضاعة الشرق والغرب على حد سواء (٦٤).

والجدير بالذكر أن المسلمين أسهموا إسهامات جليلة فى ميدان التجارة، ومما يؤثر عن سياستهم المرنة الإيجابية فى ذلك؛ أنهم تركوا لسكان البلاد المفتوحة الحرية فى أعمالهم التجارية دون حد من نشاطهم أو جهدهم ، وبالطبع فإن فى هذا العمل إنماء للتجارة واقتصاديات بلادهم .

كذلك يذكر للمسلمين تشجيعهم الفرس على مزاولـة نشـاطهم التجـارى ورحلاتهم المتعددة إلى سيلان والصين ، إذ يذكر أحد رحالة الصيـن أن سفن الفرس كـانت تتردد علـى سيلان لتتـاجر فـى البضـائع الشـرقية عـام ٩٨هـ /٧١٧م . وتحدث صينى آخر ويدعـى Hwieao عـام ١١٨هـ /٧٢٧م قـائلا عن الفرس أنهم " **يميلون بفطرتهم إلى الاشتغال بالأعمال التجارية ، ومن عادتهم الإبحار فى مراكب كبيرة يسيرون بها فـى البحـر الغربـى . وأنهم يتابعون مســيرهم حتـى يدخلـون البحـر الجنوبـى الى بـلاد الاسـود (سيلان) حيث الأحجار الثمينـة ... وأنهم يتجهون بسفنهم الكبيرة أيضا إلى الصين مباشرة حيث مدينة كانتون للحصول على الحرير وغيره من البضائع** " (٦٥).

وبالإضـافة إلى ذلك قام المسلمون بجهود أخرى فأسسوا ميناء البصرة عام ٦٣٥-٦٣٦م ، على الضفه اليسرى لشط العرب ، وأقاموا بعبـادان علـى مقربة من مصب النهر فى الخليج العربى حامية لمكافحة قراصنة البحر للحـد من خطرهم على السفن التجارية ، وعلى بعد ستة أميـال تقريبـا مـن عبادان تجـاه البحـر وجد هنـاك موضـع عـرف (بالخشـبات) قـال عنـه المســعودى "**اتخذت الخشبات فـى فم البحـر ممايلى الأبلـة وعبادان ، عليها أنـاس يوقدون النار بالليل على خشبات ثلاث كالكرسى فـى جـوف الليل خوفا على المراكب الـواردة من عمـان وسيراف وغيرهمـا أن تقع فـى تلـك الجرارة وغيرها فتعطب ، فلا يكون لها خلاص** " والجرارة دخلة مـن البحـر

إلى البر تقرب من بلاد الأبلة . أى أن هذه الخشبات كانت لهداية السفن ، وقد رفعت الخشبات على أعمدة من الخشب منصوبة فى الماء بنى عليها مرقب أطلق عليها (الناظور) يوقد ليلا لإرشاد السفن إلى مدخل نهر دجلة (٦٦).

وما أن قدم العباسيون إلى حكم الدولة الإسلامية ، حتى جنوا ثمار غرس سابقيهم فى مجال التجارة ؛ فعملوا عندئذ بجدية ومرونة على الحفاظ على هذا الغرس والزيادة فيه ؛ فهاهو الخليفة أبو جعفر المنصور عند تشييد مدينة بغداد الذائعة الصيت يقول " **هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيئ ، يأتينا فيها كل مافى البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينيا وماحول ذلك ، وهذه الفرات يجيئ فيه كل شيئ من الشام والرقة وماحول ذلك** " (٦٧).

وتتضح رؤية المنصور الاقتصادية أكثر عندما وافق على استشارة الدهقان فى اختيار موقع (بغداد) ، حين قال " **فالذى أراه ياأمير المؤمنين أن تنزل أربعة طسا سيج فى الجانب الغربى طسوجين وهما (قطر بل وبادوريا) ، وفى الجانب الشرقى طسوجين هما : (نهر بوق وكلوازى) فأنت تكون بين نخل وقرب الماء ، فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان فى الطسوج الآخر العمارات ، وأنت ياأمير المؤمنين على الصراه ، تجيئك الميرة فى السفن من المغرب فى الفرات ، وتجيئك طرائف مصر والشام ، وتجيئك الميرة فى السفن من الصين والهند والبصرة وواسط فى دجلة ، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها فى تأمرا حتى تصل ألى**

الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل فى دجلة ، وأنت بين أنهار لايصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر ، وأخربت القناطر لم يصل إليك عدوك وأنت بين دجلة والفرات لايجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج إلى العبور وانت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل ، والسواد كله ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل "(٦٨).

ويخطو (المنصور) خطوة للأمام ؛ حين ربط مدينته بنهر الفرات عن طريق قناة من نهر كرخايا ؛ لتسهيل عملية الملاحة مع آسيا الصغرى وغيرها من الأقاليم الغربية (٦٩).

لم يكتف المنصور بهذا بل أنشأ سوق (الكرخ) وأقر فيه لكل حرفة سوقا خاصا بها ، وقد شمل هذا السوق العام : سوق العطارين ، والحداديـن ، والنجارين والبزازين ، والرياحين (بائعى الزهور) ، و القصابين . ومما يذكر أن السوق الأخير جعله المنصور فى آخر الأسواق حيث قال عن أصحابه أنهم سفلة وفى أيديهم الحديد القاطع (٧٠).

ويحدثنا (ياقوت) عن سبب إنشاء هذا السوق قائلا : " لما ابتنى المنصور مدينة بغداد أمر أن تجعل الأسواق فى طاقات إزاء كل باب سوق ، فلم يزل على ذلك مدة حتى قدم عليه بطريق من بطارقة الروم رسولا من عند الملك ، فأمر الربيع أن يطوف به فى المدينة حتى ينظر إليها ويتأملها ، ويرى سورها وأبوابها وماحولها من العمارات ، ويصعده

السور حتى يمشى من أوله إلى آخره ويريه قباب الأبواب والطاقات وجميع ذلك ، ففعل الربيع ما أمره به ، فلما رجع إلى المنصور قال له : كيف رأيت مدينتى ؟ قال : رأيت بناءً حسنا ومدينة حصينة إلا أن أعداءك فيها معك قال : من هم ؟ قال " السوقة ، يوافى الجاسوس من جميع الأطراف ، فيدخل الجاسوس بعلة التجارة والتجار هم برد الآفاق فيتجسس الأخبار ويعرف ما يريد ، ويتصرف من غير أن يعلم به أحد ، فسكت المنصور ، فلما انصرف البطريق ، أمر باخراج السوقة من المدينة ، وتقدم إلى(ابراهيم بن جيش)الكوفى ، و(خراش بن المسيب) اليمانى بذلك وأمرهما أن يبنيا مابين الصراه ونهر عيسى سوقا وان يجعلاها صفوفا ، ورتب كل صف فى موضعه ، وقال : اجعلا سوق القصابين فى آخر الأسواق فإنهم سفهاء وفى أيديهم الحديد القاطع " (٧١).

وبتلك المرونة والدبلوماسية يكون المنصور قد قدم للتجارة جهدا واضحا ومتميزا إسهاما منه فى إنماء ثروة بلاده والارتقاء بها ، ولعل نص (ياقوت) يعطى لنا إطلالات واضحة على ماتميز به من مرونة ودبلوماسية ، فهو يستفد من خبرة عدوه ، وينفذها دون حرج ، وفى نفس الوقت يخشى على رعيته من غدر القصابين (الجزارين) فيجعل سوقهم آخر الأسواق ليقلل الاحتكاك بهم ، يالها من دبلوماسية وفكر راق متحضر .

وقد سار على درب المنصور فى عنايته بالتجارة من أعقبه من الخلفاء ، فمهدوا الطرق ، وانشأوا الخانات (الفنادق) لراحة التجار ،

وحفروا الينابيع للتزود بالماء ، وبسروا الضرائب ، حتى كان عهد (الرشيد) الذى حاول إثراء التجارة ، فلمح أهمية الخليج الفارسى (العربى) كنقطة انطلاق الملاحة إلى الشرق الأقصى ، وعلى ذلك حاول جمع مدنه فى وحدة إدارية واحدة حتى لا تتجزأ المسئولية ، وأسند هذا الأمر لمحمد بن سليمان بن على ؛ إذ ولاه على البصره والبحرين والفرض وعمان واليمامةوكور الأهواز وفارس (٧٢).

لم يكتف الرشيد بهذا العمل بل فكر فى ربط البحرين الأحمر والأبيض بقناة ؛ لتوفير الوقت والجهد ولزيادة التبادل التجارى ، لكنه خشى كما يقول المسعودى من سهولة اعتداء بيزنطة على الأراضى المقدسة ، فعدل عن هذه الفكرة (٧٣).

وبالرغم من عدم تنفيذها إلا أنها عبرت عن رؤية اقتصادية جادة من جانب الرشيد لاثراء التجارة وإنماء الاقتصاد.

وما من شك فإن هذه السياسة قد أتت أكلها ، إذ اصبحت (بغداد) فى عصر العباسيين سوقا رائجة لبضائع الشرق والغرب على السواء ، وانتشرت بها أرباب الغايات فى كل فن ، حتى قال عنها الزجاج : بغداد حاضرة الدنيا وماعداها بادية (٧٤) .

ولعل رحلات السندباد البحرى - الواردة فى كتاب ألف ليلة وليلة والتى ترجع إلى عهد الرشيد - كان لها نصيب فى هذا الرواج ، إذ أوضحت أن التجار المسلمين خرجوا فى رحلات بحرية من بغداد إلى شبه جزيرة ملقا

(الملايو) وكذلك إلى الصين للحصول على العطور والتوابل والحرير (٧٥).

ومما هو جدير بالذكر أن تجار المسلمين فى تلك الآونة كانت قلوبهم قد عمرت بالإيمان ، فامتلأت صدورهم حماسة ورغبة فى نشر دينهم وتعاليمه السمحة علىْ طول الطريق فى سفرهم ، مما أكسبهم وجالياتهم الحب والتقدير والاحترام من سكان البلاد والسلطات ؛ لصدقهم فى أعمالهم ، ولا أدل على ذلك من تمتع بعضهم ممن أقام بأرض الصين فى مدينة (خانفو) كانتون جنوبى شنغهاى ، بحق تعيين قاضى مسلم لهم يحكم بينهم حسب الشريعة الإسلامية ، كذلك منحوا جوازات تسمح لهم بالتنقل بين أرجاء البلاد متبادلين التجارة فيها (٧٦).

لم تقتصر هذه الامتيازات على تجار المسلمين بأرض الصين ، وإنما تعدتها إلى الهند أيضاً ؛ فيذكر أن كثيرا من ملوكهم كانوا يراعون مصالح العرب ، ولعل أحدهم ويدعى (زمورن كيرمان برمال Zamorin Ueroman Permal كان دليلا على ذلك ، فقد اعتنق الإسلام وبعضا من أمراء المليار ، وقاموا بتقديم خدمات للعرب المسلمين ، إذ أذنوا لهم بإقامة المنشآت وبناء المساجد على مايقيمون من الأرض ، ونترك المسعودى ليحدثنا عن ذلك فيقول " **وقد حضرت بلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللارمن مملكة البلهرا وذلك فى سنة ٣٠٤هـ ، والملك يومئذ على صيمور المعروف بحاج ، وبها يومئذ من المسلمين نحو عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداد يين وغيرهم من سائر الأمصار ممن**

قد تأهل وقطن فى تلك البلاد ، وفيها خلق من وجوه التجار مثل : موسى بن اسحاق الصندالونى وعلي الهزمة يومئذ ، أبو سعيد معروف بن زكريا ، وتفسير الهزمة يراد به رئاسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه ، ويعنى قولنا البياسرة يراد به من ولدوا من المسلمين بأرض الهند " (٧٧).

وعلى الرغم من مشاهدة المسعودى المتأخرة بعض الشيئ عن فترة بحثنا إلا أنها تشير إلى جذور هذا الجيل المولد ، مما يؤكد وجود آبائهم وأجداهم من قبل .

وهكذا رأينا كيف كانت مرونة ودبلوماسية الخلفاء العباسيين ، وما أسدوه من خدمات جليلة للنهوض باقتصاديات بلادهم فى الزراعة والصناعة والتجارة ، حتى غدت عاصمتهم محطاً لانظار العالم يهرع إليها التجار من كل صوب وحدب ، ويرومها من يريدون أن ينهلوا من ينابيع غيرهم التجارية، والوقوف على مدى ذوقهم ورقيهم ، ولاشك أن هذا العمل جعل من بغداد كما قال الزجاج حاضرة الدنيا .

ولاننسى أن هذا الثراء ، وماكان علية البلاط العباسى من الأبهة والعظمة ، والفرش الوثيرة ، قد دفع بالمسلمين إلى الوصول إلى أماكن متعددة لجلب ماغلى ثمنه وخف وزنه حتى وصلوا إلى بلاد الروس ، وخير دليل على ذلك وجود العديد من قطع العملة على ساحل البلطيق تعود الى العصر العباسى الأول (٧٨).

وخير مانختتم به هذه العجالة الاقتصادية هو قول الخليفة المعتصم تعبيرا عن حبه للعمارة " إن فيها أمورا محمودة ، فأولها عمران الأرض التى يحيى بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الاموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش ، وكان يقول لوزيره محمد بن عبدالملك : إذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءت بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه : (٧٩)

ولاشك أن فى هذا النص دليلا على حرص المعتصم على رغبته فى زيادة اقتصاديات بلاده مهما كانت ضآلة هذه الزيادة ، كما يعبر أيضا عن المرونة والدبلوماسية التى تحلى بها ، إذ طلب من وزيره أن يتجاوزه ولايرجع إليه فى أمر يعود بالنفع على البلاد .

تلك عجالة سريعة عن جهود الخلفاء العباسيين ومرونتهم فى الميدان الاقتصادى لننتقل بعدئذ إلى تلك الجهود فى الميدان الاجتماعى .

*****

الفصل الثالث

فى الميدان الإجتماعى

*****

تمهيد :

أينما وجد الإنسان تكون العلاقات الإجتماعية ، وهذا أمر بديهى فحياته غالبا ماتمتلئ بالمتناقضات التى تحتاج إلى مثل هذه العلاقة ، فهناك الفرح والحزن ، والشفاء والمرض ، والتولية والعزل ، والحياة والموت ، والمصاهرات والمحالفات وغيرها .

ولقد أشرنا من قبل إلى بعض هذه العلاقات فى بابنا الأول ، ولا مندوحة من التذكير بهذا البعض .

ففى العصر القديم لمحنا التهانى والتعازى ، وتبادل الهدايا وحسن العلاقات ، والمصاهرات والمحالفات ، من خلال رسائل تل العمارنة بين مصر ومعاصريها كمملكة بابل وآشور وقبرص وغيرها .

وفى العصر الوسيط لمحنا أيضا مثل هذه العلاقات ؛ فها هو عبدالمطلب بن هاشم يتزعم وفدا للعرب إلى (معد يكرب بن سيف) ملك اليمن مهنئين إياه بعودة الملك إليه .

وحينما نزل القرآن الكريم حثت آياته المباركة على الكثير من هذه العلاقات ؛ كاحترام الضيف ، وتأمين الموفد وحمايته ، والدعوة إلى المحبة

والبعد عن التباغض والتحاسد ، والدعوة إلى الترابط بين شخوص المجتمع ، والتعاون بين الناس على البر والتقوى لاعلى الإثم والعدوان ، واحترام عقيدة وفكر الآخرين وغير ذلك من العلاقات الاجتماعية التى تزخر بها آيات القرآن الكريم .

وهاهو سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) يضرب لنا المثل فى حسن العلاقات الاجتماعية ، بقبوله هدية قيرس (المقوقس) حاكم مصر عند مراسلته له ، كما سمح (صلى الله عليه وسلم) لوفد نجران بإقامة شعائرة الخاصة بمسجد المدينة دون التعرض لهم بأدنى أذى .

وهاهى زوجة سيدنا (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه تتبادل الهدايا مع زوجة هرقل امبراطور الدولة البيزنطية ، وها هو الوليد بن عبدالملك يستقبل وفدا من ملك سرنديب يتكون من ثمانى سفن تحمل الهدايا الثمينة والمجوهرات والعبيد والجوارى وغير ذلك (٨٠).

ويذكر (المسعودى) أن عمر بن عبدالعزيز قد أرسل وفدا إلى امبراطور بيزنطة فى أمر من مصالح المسلمين ؛ فاستقبل الوفد بكل الحفاوة والتقدير ، وأجيبوا أحسن إجابة إلى طلبهم ، وما أن غا إلى علم الامبراطور وفاة الخليفة (عمر) حتى تأثر كثيرا لذلك وتحدث مع الوفد حديثا يعلوه الحزن ، وأخذ يطرى عليه ويقول " لو أن أحدا بعد عيسى يحيى الموتى (بإذن الله) لظننت أنه يحيى الموتى " (٨١).

وعندما افتتح المسلمون بـلاد الهند تركـوا للهنـدوس معبداً بالمولتـان Moultan كانوا يحجون إليه من كل بقـاع الهنـد دون أذى ، فاكتسبوا بهـذا العمل ود ومحبة الأهالي لهم (٨٢).

وبهذا التمهيد تكون قد أوضحنـا بعضـاً مـن جوانـب الدبلوماسية فـى العلاقات الاجتماعية قبيل الحديث عنها فى العصر العباسى .

فى العصر العباسى.

أما فى العصر العباسى فأول مانلمحه (طـاراث) – صـاحب أرحـاء البطريق – ذلك الوافد الذى قدم من قبل (ليو الرابع) امبراطور بيزنطة ؛ إلـى الخليفة المهدى العباسى مهنئا إياه بالخلافة ، يقـول الخطيب البغدادى : سـأل يعقوب بن المهدى الفضـل بـن الربيـع عن أرحـاء البطريـق فقـال " أخبرنى اسحاق ابن محمد بن اسحق قال : له : مـن هـذا البطريـق الـذى نسبت إليه هذه الأرحاء ؟ فقال الفضل : إن أباك رضـى الله عنـه لمـا أفضـت إليـه الخلافة قدم عليه وافد من الروم يهنيه فاستدناه ثم كلمة ... فقال الرومـى أنى لم أقدم على أمير المؤمنين لمال ، ولاغرض وإنما قدمـت شـوقا إليـه وإلى النظر إلى وجهه ، لأنا نجد فى كتبنا أن الثالث مـن أهـل بيـت نبـى هذه الأمة يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . فقال المهدى : قـد سرنى ماقلت ولك عندنا كل ماتحب ، ثم أمر الربيع بإنزاله وإكرامه فأقام مدة ، ثـم خـرج يتنزه فمر بموضع الأرحـاء فنظر إليـه فقـال لـلربيع اقرضنـى

خمسمائه ألف درهم ابنى بها مستغلاً يؤدى فى السنة خمسمائة ألف درهم فقال افعل ، ثم أخبر المهدى بما ذكر فقال أعطه " (٨٣).

واذا ما وصلنا إلى عهد الخليفة(هارون الرشيد) لرأينا علاقاته الإجتماعيه تتعدد بين الشرق والغرب ؛ فيذكر (ابن عبدربه) فى عقده أن ملك الهند بعث (لهارون الرشيد) " بسيوف قلعية ، وكلاب سيورية ، وثياب من ثياب الهند ، فلما أتته الرسل بالهدية ، أمر الأتراك فصفوا صفين ولبسوا الحديد حتى لايرى منهم إلا الحدق ، وأذن للرسل فدخلوا عليه ، فقال لهم : ماجئتم به ؟ قالوا : هذه أشرف كسوة بلدنا ، فأمر هارون القطّاع بأن يقطع منها جلالاً وبراقع كثيرة نخيله فصلب الرسل على وجوههم ، وتذمموا ونكسوا رءوسهم ، ثم قال لهم الحاجب : ماعندكم غير هذا ؟ قالوا له : هذه سيوف قلعية لانظير لها ، فدعا هارون بالصمصامة سيف عمرو بن معديكرب ، قطعت به السيوف بين يديه سيفا سيفا كما يقط الفجل ، من غير أن تنثنى له شفرة ، ثم عرض عليهم حد السيف فإذا لافل فيه ؛ فصلب القوم على وجوههم . ثم قال لهم ماعندكم غير هذا ؟ قالوا : هذه كلاب سيورية لايلقاها سبع إلا عقرته ، فقال لهم هارون ؛ فإن عندى سبعا ، فإن عقرته فهى كما ذكر تم ، ثم أمر بالأسد فأخرج إليهم فلما نظروا إليه هالهم ، وقالوا : ليس عندنا مثل هذا السبع فى بلدنا : قال لهم هارون هذه سباع بلدنا . قالوا فأرسلها عليه ، وكانت الأكلب ثلاثة ، فأرسلت عليه فمزقته ، فأعجب بها هارون ، وقال لهم تمنوا فى هذه الكلاب ماشئتم من طرائف بلدنا ، قالوا ماانتمنى إلا السيف الذى قطعت به سيوفنا ، قال لهم : هذا ممالايجوز فى ديننا

أن نــهاديكم بالسلاح ولــولا ذلـك مابخلنـا بـه عليكـم ، ولكـن تمنـوا غـير ذلـك ماشئتم ، قــالو : مانتمنى إلا بــه . قـال : لا سـبيل إليـه ، ثـم أمـر لهـم بتحـف كثيرة ، وأحسن جائزتهم " (٨٤).

ويستفاد من هذا النص عدة أمور منها : مدى الدبلوماسية التـى تمتـع بها هارون الرشيد ؛ فهو بعد لقائه بالوفد ، وحـدوث ماذكرنـاه آنفـا مـن تفـوق الكـلاب السيورية علـى سبعه نـراه لايغضـب ، ولايتعـامل بغطرسـة ، وإنمـا يتعامل بمنتهى الدبلوماسـية ؛ فيطلـب مـن رجـال الوفـد أن يتمنـوا مـايريدون، وهنا طلب الوفد (الصمصامة) وأصـروا عليهـا ، عندئـذ قـال لهـم (هـارون الرشيد) أنه فـى ديننـا لانهـادى سـلاحنا فـاطلبوا غيرهـا لكنهـم أصـروا علـى طلبهم وعندئذ أمر لهم بالهدايا وأحسن جائزتهم .

ويذكر (المباركبورى) ان بعض ملوك الهنـد أهـدوا هـارون الرشـيد "هدايا جليلة فى جملتهـا قضيـب زمـرد أطـول مـن الـذراع ، وعلـى رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر ، لاقدر له من النفاسة فوهبه لأم جعفر زبيـدة بنت جعفر زوجته ، وانتقل منها إلى الأمين بلله ، ثـم إلى أخيـه المـأمون ، ثم صـار إلى المعتصـم بـلله بعـده " ويسـتطرد المبـاركبورى قـائلا : " جلـس المعتصم بالله يوما ، فشرب وعنده ندماء ، فطرح عليهم قضيب زمرد ، كـان فى يده ، طوله أكثر من ذراع ، وقال : هل فيكم من يعرف هذا القضيب فكـل نظر إليه ، وقال : لاأعرفه حتى صار إلى عبدالله بن محمد المخلـوع فقـال : نعم ياأمير المؤمنين هذا قضيب أهداه ملك الهند إلـى الرشـيد مـن جملـة هدايـا أنفذها إليه ، فوهبه الرشيد لزبيدة ، ووهبته لأبى وهو صبى ، فكان يلعب به ،

وكان على رأسه طائر ياقوت أحمر قيمته مائة الف دينار ، ولست أراه ، فأمر المعتصم بطلبه ، وتوعد الخُزان بالقتل إن لم يحضروه من ساعته ، فطلب وركب على القضيب من ساعته ، وجاءوا به إليه " (٨٥).

وهكذا اثبت لنا هذا النص عمق العلاقات الودية الإجتماعية مع ملوك الهند ، وفى نفس الوقت أثبت لنا محافظة المعتصم على تراث آبائه ، فضلا عن أن تواتر الرواية على لسان (عبدالله بن الأمين) يؤكد مدى صدقها .

وعلى صعيد آخر يذكر الطبرى أن (هارون الرشيد) بعد فتحه (هرقلة) من أراضى الدولة البيزنطية عام ١٩٠هـ ، وأخذه الجزية والخراج من (نقفور) امبراطور بيزنطة ؛ استجاب لطلب الامبراطور فى جارية من سبى هرقلة ، إذ ارسل إليه الامبراطور كتابا مع بطريقين من عظماء بطارقته جاء فيه " **لعبدالله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم ، سلام عليكم ، أما بعد ايها الملك ، فإن لى عليك حاجة لاتضرك فى دينك ولادنياك ، هينة يسيرة ، أن تهب لإبنى جارية من بنات أهل هرقلة ، كنت قد خطبتها على (ابنى) فإن رأيت ان تسعفنى بحاجتى فعلت ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، واستهداه أيضا طبيبا وسرادقا من سرادقاته ؛ فأمر الرشيد بطلب الجارية ، فأحضرت وزينت وأجلست على سرير فى مضربة الذى كان نازلا فيه ، وسلمت الجارية والمضرب بمافيه من الأنية والمتاع إلى رسول (نقفور) ، وبعث إليه بما سأل من العطر ، وبعث اليه من التمور ... والزبيب والترياق ، فسلم ذلك كله إليه رسول**

الرشيد ، فأعطاه نقفور وقر دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ، ومائة ثوب ديباج ، ومائتي ثوب بزيون ، واثنى عشر بازيا ، واربعة أكلب من كلاب الصيد ، وثلاثة براذين " (٨٦)

وذلك نبل دبلوماسى رفيع المستوى ؛ فبالأمس القريب كان الرشيد قد تلقى خطابا استفزازيا من (نقفور) كان على أثره زحفه إلى الأراضى البيزنطية والايقاع بنقفور وجنده ، واليوم يتلقى خطابا وهو يفتتح هرقلة يلتمس فيه (نقفور) إجابته إلى طلبه ؛ وبالفعل يجيبه (الرشيد) ليعطى لنا درسا فى فن الدبلوماسية ؛ إذ أنه فى الوقت الذى تشن فيه الحروب كان للجانب الاجتماعى احترامه .

وإذا كنا قد أشرنا إلى ديلوماسية الرشيد فى الجانب الاجتماعى تجاه الهند ، والدولة البيزنطية ، فإنه يجب أن لاننسى مثل هذه الدبلوماسية التى انتهجها مع (شارلمان) امبراطور الدولة الكارولنجية ، التى أوضحها اينهارد وغيره ، والتى ذكرناها من قبل . لتدل دلالة قاطعة على ماتمتع به هارون الرشيد من دبلوماسية متنوعة فى جانبها الاجتماعى .

كذلك لايفوتنا ذكر الهدايا التى تبودلت بين (رهمى) ملك الهند ، والخليفة المأمون ؛ فيذكر (المباركيورى) أن (رهمى) أرسل إلى المأمون كتابا على سبيل الهدية عرف (يصفوة الأذهان) ، مع يعض الهدايا الأخرى مثل **" جام ياقوت أحمر ، فتحة شبر فى غلظ الأصبع مملوء دراً ، وزن كل درة مثقال ، والعدة مائة درة ، وفرشاً فى جلد حية تكون فى وادى**

المهراج ... ووشي جيدها دارات سود على قدر الدرهم ، وفي وسطها نقط بيض مغروزة بالدر ، ومصليات ثلاثة بوسائدها من ريش طائر يقال له (المستدل) اذا طرحت في النار لم تحترق وفراوزها در وياقوت أحمر ، ووزن مائة مثقال عوداً رطباً ... وثلاثة وثلاثين منا كافورا محببا كل حبة منه مثل الفستقة واكبر من اللوزة مع جارية سندية طولها سبعة أذرع تسحب شعرها حسنة البشرة .." وقد رد المأمون على هذه الهدية فأرسل إلى (رهمى) كتابا بعنوان (ديوان الألباب وبستان نوادر العقول) ، مع بعض الهدايا التى شملت " فارسا بفرسه ، وجميع آلاته من عقيق ، وقيل بل فارسا بفرسه من عنبر شحرى أشهب ومائدة جزع أرضها بيضاء ، وفيها خطوط سود وحمر وخضر سعتها ثلاثة أشجار وغلظها أصبعان ، وأرجلها من ذهب ...وخمسة أصناف من الكسوة من كل صنف مائة ثوب من بياض مصر ، وخز السوس ، ووشى اليمن والاسكندرية ، وملحم خراسان ، وديباج خراسان وفرش تدمز ... ومائة طنفسة حبرية بوسائدها كل ذلك خز ، وفرش خز سنوسي ، وجام زجاج فرعوني غلظه أصبع ، وفتحة شبر ونصف في وسطه صورة أسد نابت ، وأمامه رجل برك على ركبته ، وقد أعرق السهم في القوس نحو الأسد " (٨٧).

وهكذا تعددت الهدايا بين الخليفة (المأمون) ، ورهمى ملك الهند ، وان دلت على شيئ فانما تدل على حسن الصلات الحضارية الراقية في

جانبها الاجتماعى بين الطرفين ؛ إذ تبادلا كتاب بكتاب ، وهدايا بهدايا ، وان دلت هدايا المأمون على اتساع ثروات بلاده ، كما ألمحت إلى أن المسلمين لاينسون واجبهم فى الدفاع عن دينهم وبلادهم كما ظهر ذلك واضحا من صورة الأسد النابت الذى صوب إليه سهم من جانب إحدى الفرسان .

ويذكر ابن الفراء أن "باسل ، الامبراطور البيزنطى أرسل إلى الخليفة المعتصم رسولاً ومعه كتاب ؛ رجا فيه المعتصم أن ينعم عليه باطلاق سراح بطارقته البالغ عددهم مائة وخمسون بطريقا ، وهو على أتم استعداد بأن يفدى الواحد منهم بمائة من المسلمين ، وقد وجه مع الرسول أربعين ثوبا من الديباج المذهب طول كل منها أربعون ذراعا فى عرض عشرين ، وبطريقا وخادما وجماعة معهما ، وبعد وصولهم قرأ محمد بن عبدالملك الزيات الكتاب ، ولم يدخلهم إلى أمير المؤمنين قائلا إنه مشغول .

وعلى ذلك بقى الوفد حوالى ستة أشهر ، ولما أذن للرسول بالدخول إلى الخليفة المعتصم ، قال له الخليفة لقد أضررنا بك لطول مقامك . فقال : كلا ، إن طول المقام أوجب لى الذمام ، وماضرنى مقام قرب منك وأشهدنى نعم الله عندك ، فأعجب المعتصم بما ترجم له من كلام الرسول وقبل هديته . (٨٨).

وبهذه الكلمات نختتم ماأتيح لنا من معلومات عن الدبلوماسية فى الميدان الاجتماعى ، والتى تنوعت كما رأينا من خلال ماتم من صلات حضارية ، بين الخلفاء العباسيين وكل من الهند وبيزنطة ، ودولة الفرنجة ، لننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الدبلوماسية فى الميدان الثقافى .

الفصل الرابع

فى الميدان الثقافى

****

تمهيـد :

لاشك أن الثقافة لغة الحضارة وحضارة اللغة ، معول البناء ، ميزان الرخاء ، مصباح الضياء . ومن هنا فقد عنى الإسلام بالعلم والدعوة له ، إذ يقول الحق تبارك وتعالى فى أول مانزل من قرآنه الكريم على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم " **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم** " (٨٩) . وهى دعوة صريحة للعلم وطرق أبوابه ،وارتياد دروبه ، واقتحام مجاهله .

وفى صورة آل عمران يقول عز وجل" **إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار** " (٩٠) .

وتلك آيات بينات تدعو إلى التفكير والتدبير وإعمال العقل والحث على البحث فيما خلق الله ، والإيمان بمشيئته وطلاقة قدرته ، وهناك العديد

من آيات القرآن الكريم التى تدعو إلى العلم والأخذ بأسبابه ، والجهاد فى سبيله حتى يرقى الانسان إلى مستوى التكريم الذى حظى به من عند ربه .

وقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلى العلم ، والارتواء من ينابيع الثقافة ؛ فيؤثر عنه قوله " ***اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد*** " وقوله " **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** "وكان صلى الله عليه وسلم دائما يحث الصحابة على تعلم القراءة والكتابة ومعرفة لغة الغير ، فضلا عن حرصه الشديد على أن يكون للمرأة من ذلك حظها الموفور ، ولاننسى موقفه صلى الله عليه وسلم من أسرى بدر ممن لم يكن بوسعه دفع الفدية أن يعلم عشرة من ابناء المسلمين ، ليعطى لنا درسا عمليا فى الدعوة الى العلم والمعرفة .

وقد أبحرت سفية الثقافة عابرة العصرين الراشدى والأموى حتى حطت رحالها على بر الخلافة العباسية ، فوجدت التربة عندئذ مهيأة خصبة لرقى أكبر ، واتساع أرحب ، وثراء فكرى منقطع النظير ، ذلك لأن المسلمين بثرائهم المادى ، ووضعهم السياسى فتحت لهم كنوز العلم شرقا وغربا ، تتفجر ينابيعها لتروى ظمأ المسلمين الذين تمثلوها ، وأضافوا إليها وصبغوها بصبغة إسلامية ، فكانت حضارتهم الإسلامية ذائعة الصيت هى باب الرقى للعالم أجمع .

وحتى لاننزلق كثيرا نترك المجال لنيكلسون فيذكر أن المسلمين فى العصر العباسى انطلقوا يجوبون بلاد القارات الثلاث ، بحثا عن ينابيع الثقافة محلقين فوق بساتينها كالنحل ، ليعودوا بعد ذلك بالشهد إلى طلابهم

المتعطشين له ، مصنفين أعمالهم بما بذلوه من جهد متواصل ، حتى أصبح أشبه مايكون بدوائر المعارف التى كان لها أكبر الأثر فى نقل هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل (٩١) .

رعاية الخلفاء العباسيين للعلم والثقافة .

الجدير بالذكر أن الخلفاء العباسيين كان لهم دورهم الإيجابى والملحوظ فى إنماء شجرة الثقافة ، والرقى بالحياة العلمية فى بلادهم حتى صارت عاصمتهم محط أنظار العالم ، إليها تطير الثقافات ، ومن ينابيعها يرتشف الظمأى والمتعطشون للعلم والمعرفة ، وبالتالى كانت (بغداد) حديث الدنيا .

وطبيعى لم يكن ذلك ليتأتى لها إلا بفضل مابذله الخلفاء العباسيون من جهد متواصل ، وحب للثقافة ، ورعاية للعلم والعلماء .

فها هو الخليفة (المنصور) يختار لإبنه (المهدى) الشرفى بن القطامى معلما له ، ويوصيه بأن يعلمه أخبار العرب ، ومكارم الاخلاق ، وقراءة الأشعار ، والنهل من ينابيع الأدب حتى يصير رجلا متحضرا كذلك نرى الخليفة (هارون الرشيد) ، يعهد فى تعليم ابنه (الأمين) الى (الأحمر النحوى) ثم (الكسائى) وفى تعليم ابنه (المأمون) إلى (اليزيدى) ، و(سيبويه) (٩٢) .

ويذكر المسعودى وصية (لهارون الرشيد) إلى الأحمر النحوى فى تأديب ولده (محمد الأمين) جاء فيها " **قال الأحمر النحوى : بعث إلى الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين ، فلما دخلت قال : ياأحمر ، ان أمير**

المؤمنين قـد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبـه ، فصير يـدك عليـه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن لـه بحيث وضعك أمير المؤمنين ، اقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، ورّوه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدأه ، وامنعه الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولاتمعن فى مسامحته فيستحل الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإنْ أباهما فعليك بالشدة والغلظة " (٩٣) .

ومما يؤثر عن الرشيد حسن ملاطفته للأصمعى وإجلاله حتى إذا خلابه سأله واستفاد من علمه وأدبه ، وكان كثيرا مايمنحه الجوائز القيمة ، وإمعانا فى احترام الرشيد لسلطان العلم وهيبته يروى أنه ذات مرة تناول معه الطعام (أبو معاوية الضرير) ، وبالانتهاء منه قام (أبو معاوية) لغسل يديه ، فتناول الرشيد الابريق وصب الماء على يدى (أبى معاوية) ، والرجل بالطبع لايعلم من يفعل ذلك ، وعندئذ قال له الرشيد : أتدرى ياأبا معاوية من الذى يصب الماء على يديك ، قال لا ، قال : أنا الخليفة ، قال : أُبو معاوية أنت يا أمير أعمال المؤمنين قال نعم إجلالا للعلم (٩٤).

وتلك سمة حضارية لاجدال فى هذا لأن للعلم هيبته وسلطانه وإجلال القائمين عليه لما يبذلونه من جهد فى تنوير عقول غيرهم .

وإذا ماحانت منا التفاته إلى (المأمون) لرأيناه أيضا يميل للعلم ويجل أهله ويحتفى بهم ، فيروى أنه عهد (للفراء) ، بتعليم ولديه النحو ، ويذكر أنه ذات مرة أراد الفراء أن ينهض بعد الدرس ، وما ان بحث عن نعليه حتى حاولا ولدى المأمون أن يقدماه له ، واختلفا فيمن يحظى بهذا التقديم ثم اتفقا على أن يقدم كلا منهما واحده ، ولما نما إلى علم المأمون ذلك استدعاه ، فلما دخل عليه قال له المأمون : من أعز الناس ؟ قال : لاأعرف أحدا أعز من أمير المؤمنين ، فقال : بل من اذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين ، حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردا ، قال : يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو اكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها (٩٥) .

ومما يذكر عن المأمون أنه كان يحث الناس على قراءة الكتب ويرغبهم فى اقتنائها ، وكان غالبا مايجتمع بالعلماء والحكماء ، ويأتى بهم ويناظرهم ، وبالطبع لم يكن هذا بمستغرب عن المأمون ، فهو أعلم خلفاء بنى العباس لاجدال فى هذا ، له باع فى اللغة والشريعة ، والفلسفة ، جالس المتكلمين ، وقرب أهل الجدليين المبرزين والمناظرين ن وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الادباء وأقدمهم ، وأجرى عليهم الأرزاق ، فرغب الناس فى صنعة النظر ، وتعلموا البحث والجدل (٩٦) .

ويأتى الخليفة (الواثق) ليستكمل جهود سابقيه فى رعاية العلم ؛ فيعقد مجلسا للفلسفة والطب يحضره من الفلاسفة والمتطبيين ابن بختيشوع وابن ماسويه ، وميخائيل ، وحنين بن اسحاق وسلموية وغيرهم ، ويدور فيه

الحوار بعد اطروحات الواثق حول الطب ، والفلسفة والطبيعيات والإلهيات وغيرها (٩٧).

تلك إطلالة يسيرة على رعاية الخلفاء العباسيين للعلم وأهله ، واجلالهم لعطائه المتدفق ، الذى يسرى فى دم العلماء ، ويغطى بظلاله الوارفة أبناء المجتمع ، ويكون مطيتهم السهلة إلى الرقى والتقدم الحضارى .

من دبلوماسية الخلفاء العباسيين فى إثراء الثقافة.

وفضلا عن رعاية الخلفاء العباسيين للعلم وأهله داخل بلادهم ، كانت لهم علاقاتهم الدبلوماسية فى هذا المجال مع بعض البلدان الأخرى ، فتذكر (زيغريد هونكه) : أنه فى عام ١٥٦هـ وفد إلى بلاط الخليفة المنصور فلكى من الهند اسمه (كنكة) kankah وكان عالما فى طرق الحسابات الهندية المعروفة باسم سندهند sind Hind والتى تهتم بحركات الكواكب . وكان يحمل كتابا أخذه من المجموعة التى تحمل اسم الملك (فيجار Figar) وقد أمر المنصور بترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، وبأن يؤلف كتاب على نهجة يشرح للعرب سير الكواكب ، وعهد بهذا العمل إلى محمد بن ابراهيم الفزارى الذى ألف على نهجة كتابا يعرفه الفلكيون باسم (السند هند الكبير) ، وكلمه السند هذه تعنى باللغة العربية (الخلود) وقد أخذ العلماء بهذا الكتاب حتى عصر المأمون حيث أعاد محمد بن موسى الخوارزمى كتابته وأضاف إليه (٩٨).

وتضيف (هونكة)أن الكتاب المذكور الذى أحضره هذا الهندى إلى بلاط الخليفة ، ماهو إلا كتاب siddihante لمؤلفه " براهما جوبتا " وعرف فى

العربية بعد ترجمته باسم (سند هند) وقد لاقى نجاحاً كبيرا ، وأسهم في أبحاث الفلك التي عني بها الخلفاء العباسيون على وجه الخصوص .

ولاشك أن الوافد (كنكة) وكتابه يمثلان علاقة دبلوماسية في مجال الثقافة ، بين الهند وبغداد .

وللاستفادة في الطب من علم مدرسة (جند يسابور) جنوب غرب إيران ، يذكر الطبري وغيرة أن المنصور قد اعتلت صحته حوالي عام ١٤٩هـ /٧٦٥م ، وكان لايستمرئ طعاما لاضطراب في معدته ، لذلك كان يأخذ كثيرا من (الجوارشنات) وهي أدوية هاضمة على أيدي مجموعة من أطبائه ، إلا أن صحته لم تتحسن كثيرا ، عندئذ اشير عليه باستدعاء (جورجيس بن بختيشوع) رئيس أطباء (جند يسابور) اشهر مدارس الطب في تلك الأيام ، فأرسل المنصور في طلبه فترك (جورجيس) أمر المستشفى لولده (بختيشوع) واصطحب معه اثنين من تلاميذه وقدم إلى بغداد (٩٩) ، وقد نجح جورجيس هذا بعد محاورة كلامية بينه وبين الخليفة في تشخيص مرضه وكتابة علاج له تحسنت على اثره صحته بعد تناوله ، وقد سر المنصور لذلك ، ومنعه من الرجوع الى بلده .

وان دل هذا على شي فانما يدل على مدى حب الاستفادة من الخبرة الاجنبية ؛ اذ استدعى المنصور ذلك الطبيب من (جند يسابور) وإن كان الطبري يذكر أنه من الهند للاستفاده بعلمه في علاج مرض الم به ، وقد اسهم هذا العمل في تنشيط حركة الترجمة على ايدي النساطرة وغيرهم.

ويذكر الدكتور العدوى أن الخليفة المنصور بعث إلى امبراطور الدوله البيزنطية يطلب منه كتباً يونانيه فأجابه الإمبراطور إلى طلبه وأرسل إليه مجموعه من الكتب من بينها كتاب اقليدس (١٠٠) وهو جومطريا ومعناه الهندسه كما قال بذلك ابن النديم (١٠١).

ويضيف الدكتور العدوى أنه إلى عهد المنصور ترجع المحاولات الأولى للترجمة من اليونانيه الى العربية ، وممن اضطلع بذلك يخيى بن البطريق الذى ترجم الكثير من كتب جالينوس وابقراط فى الطب ، على أن كثيرا من الكتب ترجمت فى ذلك الوقت واعيد ترجمتها أو مراجعتها فيما بعد زمن الرشيد والمأمون (١٠٢).

وفى عهد هارون الرشيد اشتهر ابن بختيشوع الطبيب الذى نبغ فى علم النفس ، ومهر فى تشخيص الامراض العصبية حتى عينه الرشيد رئيسا للاطباء فى حاشيته (١٠٣) وتلك دبلوماسيه ومرونه من جانب الرشيد فعلى الرغم من ان ابن بختيشوع لم يكن عربيا الا انه لكفاءته وعلمه ولاه رئاسة اطبائه .

ويذكر الطبرى أن الرشيد اعتل علة لم تنجح معها محاولات اطبائه فى ازالتها ، عندئذ قال له ابو عمر الاعجمى " بالهند طبيب يقال له (منكة) رايتهم يقدمونه على كل من بالهند ، وهو أحد عبادهم وفلاسفتهم فلو بعث اليه امير المؤمنين لعل الله أن يبعث له الشفاء على يده " (١٠٤).

فوجه الرشيد من جاء به اليه فقدم له هذا الطبيب العلاج الذى برئ به الرشيد من علته فأجرى له الارزاق الواسعة والاموال الكافية .

ويذكر صاحب الفهرست أن يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد أوفد الى بلاد الهند رجلا " ليأتيه بعقاقير موجوده فى بلادهم ، وأن يكتب له أديانهم " (١٠٥).

وهكذا رأينا كيف استفاد الخلفاء العباسيون من ثقافة الهند وجند ديسابور وبيزنطه ، فى الطب والرياضيات ، كما اوضحنا ذلك فى عهد كل من المنصور والرشيد ، وزياده فى الفائدة لم تكن هذه الجهود وقفا على الخلفاء فحسب ، بل تعدتها الى الوزراء ، فقد ارسل يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد رجلا الى الهند ليحضر اليه بعض العقاقير من هناك ، وان دل هذا على شيئ فإنما يدل على توجه حضارى كبير للخلافه العباسية .

ولكى يتأكد لنا هذا التوجه نرى الخليفة هارون الرشيد الذى استفاد من خبرة وثقافة الهند الطبية ، يولى وجهه شطر الثقافة اليونانية ذلك التراث الذى ورثته بيزنطة ، فى محاولة منه للاستفادة بهذا التراث ، فيذكر انه اثناء افتتاحه لانقره وعموريه وغيرهما من أراضى الدوله البيزنطيه عثر هناك على كميه كبيرة من الكتب فأمر بحملها الى بغداد ؛ وأمر طبيبه (يحيى بن ماسويه) بترجمتها ، فأنجز يحيى تلك المهمة ، وكانت هذه الكتب فى جملتها كتبا للطب ، هذا وقد ترجم ايام الرشيد كتاب (اقليدس) فى الهندسة على يد (الحجاج بن يوسف بن مطر) وأُعيدت ترجمته مرة أخرى ايام الخليفة المأمون (١٠٦).

وحينما نصل الى عهد الخليفة (المأمون) نرى أن بغداد قد زخرت بالثقافات والعلوم ، وازدحمت بكل الوان المعارف والفنون ، رحل اليها

العلماء ، وتبارئ فى رحابها الفقهاء والحكماء ، وكيف لا ؟ وخليفتها (المأمون) أعلم بنى العباس بالفقه والكلام ، جليسا للعلماء ، راعيا للثقافة محبا لها ، كان من أنصار حرية الرأى والفكر ، فتبارى فى رحاب بلاطه العلماء ، وعقدت بها مجالس الحكماء والفقهاء .

ولشغفه بالعلم وتطلعه الى التعرف على ماتحتويه كتب الإغريق ، كانت بينه،وبين (ليو الأرمنى) ٨١٣-٨٢٠م امبراطور بيزنطة مراسلات طلب فيها السماح لوفده وعلمائه فى الحصول على مصنفات الإغريق فى الفلسفة والهندسة والطب وغيرها ، فأجابه الامبراطور لذلك ، وضم وفد المأمون إذ ذاك اشهر علماء عصره مثل : الحجاج بن يوسف بن مطر ، وابن البطريق ، وسلما ، وصاحب بيت الحكمة ، وقد اختار هؤلاء مجموعه من الكتب عادوا بها الى بغداد ليبدأ العلماء فى ترجمتها تحت اشراف قسطا ابن لوقا (١٠٧) .

ومما يجدر ذكره ان السريان كان لهم دورهم الملحوظ فى ترجمة الكتب الاغريقية الى لغتهم أولا ، ثم إلى اللغة العربية ، فكتاب الهرمنطيقا لأرسطو ترجم أولا إلى السريانية على يد (حنين بن اسحق)، ثم ترجم إلى العربية على يد (اسحق بن حنين) وغير ذلك من الكتب .

ولكى يواكب المأمون نشاطه الفكرى وولعه بالثقافه ، والوقوف على آخر ما وصلت إليه القسطنطينية فى هذا المجال ، نراه قد سمع بعالم شهير فى الرياضيات اسمه (ليو) ذاع صيته من خلال تلاميذه ، فلم يتوان المأمون فى طلب هذا العالم إلى بلاده ، وأرسل فى ذلك إلى الامبراطور (ثيوفيل)

للسماح له بالذهاب إلى بغداد .لكن (ثيوفيل) اعتبر علم (ليو) من الأسرار التى يجب أن لاتذاع فى بغداد ، فلم يجب (المأمون) إلى طلبه على الرغم من عرضه المغرى ؛ صلحاً دائماً ، وألف قطعة ذهبية (١٠٨).

وممايذكر من جهود المأمون أيضا أنه حينما تم الصلح بينه وبين ملك (قبرص) طلب الأول من الثانى أنْ يرسل إليه خزانه كتبه ، لكن الملك رفض بعد أن تشاور فى الأمر مع خاصته ، إلا مطرانا واحدا كان قد اقتنع بارسالها واقتنع الملك بذلك فارسلها معه ، وعندئذ سر المأمون لهذا الصنيع (١٠٩).

كذلك أوفد المأمون محمد بن موسى الخوارزمى أمين دار كتبه مع بعثة إلى أفغانستان ، ويبدو أن الخوارزمى قد تسلل إلى الهند ثم عاد إلى بغداد بعد اطلاعه على بعض الثقافات والعلوم ، ولاشك أن الخوارزمى كانت له شهرة واسعة النطاق لاسيما فى علم الجبر والمثلثات والهندسة ، وعلم الجغرافيا وغيرها من المؤلفات ، وكان له فضله الذى لاينكر على أوربا وفى ذلك يمكن مراجعة بعض الكتب الآتيه (١١٠).

ومما تجدر ملاحظته أنه فى عهد المأمون لمع بنو موسى بن شاكر ؛ (محمد واحمد وحسن) فى سماء العلم ، وكان لهم جهودهم الوافرة ، ودورهم المبرز فى إثراء الحياة العلمية ببغداد ، وعلى وجه الخصوص فى علم الرياضيات ؛ إذ ألفوا فى مراكز (الثقل) وهو علم يعرف منه كيفية إستخراج ثقل الجسم المحمول ، والمراد بمركز الثقل (حد فى الجسم يتعادل عنده بالنسبه للحامل) (١١١).

وممايذكر من عناية هؤلاء الأبناء بنقل الكتب اليونانية ؛ سافر أحدهم وهو (محمد) إلى أراضى الدولة البيزنطية للحصول على مخطوطات تبحث فى الرياضيات والفلك ، وبالطبع عاد هذا العمل على بغداد بالتنوير الثقافى ، كما يعزى لهم إرسالهم (حنين بن اسحق) وغيره إلى الدولة البيزنطية فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة ، والموسيقى ، والارثماطيقى ، والطب ، وكان قسطا بن لوقا البعلبكى قد حمل معه شيئا فنقله ونقل له . قال بذلك ابن النديم (١١٢).

وفى عهد الخليفة الواثق ٢٢٧-٢٣٢هـ تتمو العلاقات الثقافية بين بغداد والقسطنيطنية إلى درجة متميزة ؛ إذ أرسل الخليفة أحد علماء المسلمين بإذن من الامبراطور ميخائيل الثالث إلى مدينة (أفسوس) لمشاهدة الكهف الذى حفظت به جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا زمن الامبراطور (دقلديانوس) وللدليل على حسن العلاقة أوفد الإمبراطور دليلا لمهمة هذا العالم (١١٣) .

ولاشك أن زيارة الآثار والوقوف عليها إثراء كبير للثقافة وإنماء لشجرة العلم . .

وهكذا رأينا من خلال ماتقدم كيف كان للخلافة العباسية فى عصرها الذهبى علاقات دبلوماسية متميزه فى عدد من الميادين السياسيه والاقتصادية والاجتماعيه والثقافيه وصلت إلى درجة كبيرة من الرقى والنماء ، وإن كان ذلك فى هذا العصر الذى وصلت فيه الدولة الإسلامية إلى قمه الحضارة ، فإن ما أوردناه فى بابنا الأول من هذه العلاقات ، يعد بمثابه البنية التحتية التى

يمكن أن ينشأ عليها تنظيراً أوضحناه في الباب الثاني لتكتمل بذلك الرؤية الحضارية التي من خلالها أبرزنا دور العرب المسلمين في هذا المجال ، وما أسدوه من جهد كبير إنماءً منهم للحضارة الإسلاميه على وجه الخصوص ، وللحضارة الإنسانية على وجه العموم ، وبذلك يكونوا قد اضافوا درة في جبين الحضارة العالمية .

*****

حواشى الباب الثانى

(١) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٤٥٩ ـ حوادث ١٣٣هـ ٠

Gibb . The Arab Conuests in central asia P. 96 .

الصينى (بدر الدين حى) :

العلاقات بين العرب والصين ، ص ٣٤ ٠

(٢) الصينى (بدر الدين حى) :

المرجع السابق ، ص ٣٦ - ٣٧ ، ١٨٥ ٠

(٣) الصينى (بدر الدين حى) :

المرجع السابق ، ص ٤٤ ٠

(٤) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٦١٤ ، حوادث ١٤٥هـ ٠

(٥) ابن عبدربه :

العقد الفريد ، جـ ٤ ، ص ٢٦٣ ٠

(٦) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ـ ص ٣٣ - ٣٦ ٠

(٧) المباركبورى (أطهر) :

الهند فى عهد العباسيين ، ص ١٧ ، دار الأنصار ، القاهرة ١٣٩٩ هـ ٠

(٨) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٤٩٧ ، ٥٠٠ ٠

(٩) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ ١ ص ٧٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .

(١٠) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ص ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، حوادث : ١٥٢ ، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥ هـ .

(١١) الدورى (عبد العزيز) :

العصر العباسى الأول ، ص ٩٤ ، بغداد ١٩٤٥م .

حسن (حسن إبراهيم) :

تاريخ الإسلام ، جـ ٢ ، ص٢٣٢ ، ط ٧ ، القاهرة ١٩٦٤م .

العدوى (إبراهيم أحمد) :

المسلمون والجرمان ، ص ٢٦٤ ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

(١٢) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ١٥٢ – ١٥٣ ، حوادث ١٦٥ هـ .

نورمان بينز :

الإمبراطورية البيزنطية ، ٣٦٢ ، تعريب د / حسين مؤنس ، ومحمد يوسف زايد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٠م .

الجنزورى . (علية عبد السميع) :

الأمبراطورة إيرين ، ص ٣٣ – ٣٤ ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨١م .

(١٣) اليعقوبى :

المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ ٠

(١٤) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ص ٢٦٨ ، حوادث ١٨١ هـ ٠

(١٥) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص٣٠٧ -٣٠٨ ، حوادث ١٨٧ هـ ٠

ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤١ ٠

(١٦) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٣٠٨ ، حوادث ١٨٧ هـ ٠

(١٧) ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٢ ٠

(١٨) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ٨ ، ص ٣٠٨ ، حوادث ١٨٧ هـ ٠

المسعودى :

المصدر السابق جـ ٨ ، ص ٣٠٨ ٠

ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٢ ٠

(١٩) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص٣٠٨ - ٣٠٩ ٠

ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٢ – ٤٣ .

(٢٠) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص٣٠٩ – ٣١٠ ، حوادث ١٨٧ هـ .

المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص٣٠٨ –٣٠٩ .

ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٢١) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٣٢٠ .

المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ١ ص٣٠٩ – ٣١٠ .

(٢٢) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ٨ ، ص ٣٢١ – ٣٢٢ .

(٢٣) لويس (أرشيبالد) :

القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط من ٥٠٠ – ١١٠٠م ص١٦٠ ، ١٦٢ . ترجمة ، احمد محمد عيسى مراجعة وتقديم ، محمد شفيق غربال النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠م .

(٢٤) لويس أرشيبالد :

المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٢٥) المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص٦ ٣ ٠

(٢٦) شاكر مصطفى :

فى التاريخ العباسى ، جـ ١ ، ص ١٥٢ ، مطبعة الجامعة

السورية ١٩٥٧م ٠

(٢٧) اينهارد :

سيرة شارلمان ص١٠٤ ، ١٠٥ ، ترجمة د / عادل زيتون ، دار أحسان

دمشق ١٩٨٩ ، ط١ ٠

(٢٨) اينهارد :

المرجع السابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ٠

(٢٩) وليم الصورى :

الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٧ ، ترجمة ٠ د/ حسن حبشى ، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١م ٠ (سلسلة تاريخ المصريين ٤٥) ٠

(٣٠) عبد العزيز الدروى :

العصر العباسى الأول ، ص ١٤٩ – ١٥٦ ، بغداد ، منشورات دار المعلمين

العالية ، ١٩٤٥ ٠

(٣١) هـ ٠ و كارلس ٠ ديفز : شارلمان ، ترجمة د / السيد الباز العرينى ،

ص ٢٩٢،٢٩٣ مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩م ٠

(٣٢) حسن (حسن إبراهيم) .

تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى جـ٢ ، ص٢٣٧،

طـ ٧ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤م .

المدور (جميل نخلة) :

حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٢٢٧ - ٢٣١ . مطبعة الاعتماد ،

القاهرة ١٩٣٢ .

حتى (فيلب) وآخرين :

تاريخ العرب مطول جـ ١ ص ٣٧٠ - ٣٧١ ، دار الكشاف للنشر والطباعة

والتوزيع ١٩٥٢ .

أمين : (أحمد) :

هارون الرشيد ، ص ١٩٨ - ٢٠٣ ، دار الهلال القاهرة .

العدوى (إبراهيم احمد) :

المسلمون والجرمان ص ٢٦٥ - ٢٦٨، دار المعرفة.القاهرة ١٩٦٠ ط١ .

ماجد (عبد المنعم) :

العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ص ٧٧ - ٧٨ ، مكتبة

الجامعة العربية بيروت ١٩٦٦م .

(٣٣) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٦٢٣ ، ٦٢٥ .

ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٣٤) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٦٢٨ ٠

(٣٥) الطبرى :

نفس المصدر والجزء ، ص ٦٢٩ ٠

المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٣ ٠

(٣٦) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٦٢٩ - ٦٣٠ ٠

(٣٧) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ٥٥ ٠

المسعودى :

المصدر السابق جـ ٤ ، ص ٥٨ - ٥٩ ٠

ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٤ ٠

(٣٨) الطبرى :

الصور السابقة ، جـ ٩ ، ص ١٤١ - ١٤٤ ٠

ڤازيليف :

العرب والروم ، ص ١٧٥ - ١٧٨ ، ترجمة د / محمد عبدالهادى شعبرة

مراجعه د / فؤاد حسين على دار الفكر العرب ٠ القاهرة ٠

(٣٩) سورة القصص :

آية ، ٧٧ ٠

(٤٠) سورة الجمعة :

أية ، ١٠ ٠

(٤١) سورة : الملك :

أية ، ١٥ ٠

(٤٢) سورة المزمل :

آية : ٢٠ ٠

(٤٣) ابن خلدون :

عبد الرحمن ابن محمد خلدون ت٨٠٨هـ ، المقدمة جـ٢: ص٩٠٥ - ٩٨٤،

تحقيق د٠/ على عبد الواحد وافى دار نهضة مصر القاهرة جـ١ ، ١٩٧٩م٠

(٤٤) البغدادى (الخطيب) :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ ٠

الحموى (ياقوت) :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٦٠ ٠

(٤٥) البغدادى (الخطيب) :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٧٩ ٠

(٤٦) حسن (حسن ابراهيم) ٠

المرجع السابق ، ص ٣٧٥ ٠

(٤٧) ابو يوسف :

الخراج ، ص ٥٧ ، دار المعرفة للطباعة ، بيروت لبنان ٠

(٤٨) عمارة (محمد) :

قاموس المصطلحات الأقتصادية فى الحضارة الإسلامية ، ص ٥٥٣ ٠

دار الشروق ١٩٩٣م طـ ١ ٠

(٤٩) ابو يوسف :

المصدر السابق ، ص٤٩ - ٥٠ ،

(٥٠) البغدادى (الخطيب) :

المصدر السايق ، والجزء ، ص ٧٠ ٠

(٥١) البغدادى (الخطيب) :

نفس المصدر والجزء ، ص ٩١ ٠

(٥٢) ابو يوسف :

المصدر السابق ، ص ٣ ٠

(٥٣) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ص ٥٦٨ ، ٥٧٦ ٠

(٥٤) الشاعر (فتحى) :

الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ص ١٠٢ ، دار المعارف

١٩٩١م ٠

(٥٥) الحموى (ياقوت) :

المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١١٢ ٠

(٥٦) هايــــد : ف :

تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص٤٦ ٠

ترجمة : احمد رضا ، مراجعة : عز الدين فوده القاهرة ١٩٨٥م ٠

(٥٧) حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ ٠

(٥٨) حسن (حسن إبراهيم) :

نفس المرجع والجزء والصفحة ٠

(٥٩) الحموى (ياقوت) ٠

المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١ ٠

هايــــد : ف :

المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٦ ٠

(٦٠) خسرو (ناصر) :

سفر نامة ، ص ٧٧ ، نقلة إلى العربية د/ يحي الخشاب ، دار الكتاب الجديد

بيروت ١٩٨٣م ، ط ٣ ٠

حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ ٠

(٦١) حسن : (حسن إبراهيم) :

نفس المرجع والجزء ، ص ٣١٠ ٠

(٦٢) الحموى (ياقوت) :

المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٤٨ ·

حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٠ ·

(٦٣) ابن هشام :

السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٨٩ - ٩٠ ·

(٦٤) لومباردو (موريس) :

الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ، ص ٢٥ ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، دار الفكر : دمشق ·

(٦٥) العدوى (ابراهيم احمد) :

الأمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، ص ١١٢ ، مكتبة نهضة مصر القاهرة ·

(٦٦) المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ·

خسرو (ناصر) :

المصدر السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢ ·

هايـــد : ف :

المرجع السابق جـ ١ ص ٤٣ ·

العدوى :

المرجع السابق ، ص ١١٢ ·

(٦٧) الطبرى :

المصدر السابق جـ ٧ ، ص ٦١٤ .

(٦٨) الطبرى :

نفس المصدر والجزء ، ص ٦١٦-٦١٧ .

الحموى (ياقوت) :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٥٨ .

(٦٩) البغدادى (الخطيب) :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٧٩ .

(٧٠) البغدادى :

نفس المرجع والجزء ، ص ٨٠ .

حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٢ .

(٧١) الحموى (ياقوت) :

المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٤٨ .

(٧٢) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٢٣٤ ، حوادث ١٧٠هـ .

(٧٣) المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٧٤) الحموى (ياقوت) :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٦١ .

(٧٥) ف • هايــــد :

المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٤ •

(٧٦) ف • هايــد :

نفس المرجع والجزء ، ص ٤٧ •

(٧٧) المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص١٩٧ •

ف • هايــــد :

المرجع السابق ، جـ ١ ، ص٥٠ •

(٧٨) ف • هايــد :

المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٧٥ •

(٧٩) المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص٤٨ •

(٨٠) النجرامى (محمد يوسف) :

العلاقات بين الهند والخلافة العباسية ، ص ٣٧ ، بيروت لبنان ١٩٧٩م•

(٨١) المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٧٥ •

(٨٢) ف • هايــــد :

المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٠ •

(٨٣) البغدادى (الخطيب) :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٩١ -٩٢ •

(٨٤) ابن عبدربه :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٦١ -٦٢ ٠

(٨٥) المباركبورى (اطهر) :

المرجع السابق ، ص ٣٧ – ٣٨ ٠

(٨٦) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص٣٢١ ، حوادث ١٩٠هـ ٠

(٨٧) المباركبورى :

المرجع السابق ، ص ٤٤ – ٤٧ ٠

(٨٨) ابن الفراء :

المصدر السابق ص ٣٤ – ٣٥ ٠

(٨٩) سورة العلق : آية ١ – ٥ ٠

(٩٠) سورة آل عمران : آية ١٩٠ – ١٩١ ٠

(91) Nicholson : A Reynold Literary History of the Arabs P. 281 . cambridge1930

(٩٢) فراج (عز الدين) :

فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية ، ص٣٧ ، دار الفكر العربى القاهرة ٠

(٩٣) المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٣٣ ٠

(٩٤) حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦١ ٠

فراج (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ٣٩ ٠

(٩٥) الزيات (احمد حسن) :

تاريخ الأدب العربى ، ص ٣٦٩ ، القاهرة ، الطبعة الرابعة والعشرون ٠

فراج (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ٣٨ ٠

(٩٦) المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٩٢ ٠

(٩٧) المسعودى :

المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٧٤ - ٧٨ ٠

(٩٨) حتى (فيليب) :

المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٨١ ، بيروت ١٩٥٢م ٠

زيغريد هونكة :

شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٧٣ - ٧٤ ٠

(٩٩) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٥٩ ٠

فراج (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ١٣ ٠

(١٠٠) العدوى :

المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(١٠١) ابن النديم :

المصدر السابق ، ص ٣٧١ .

(١٠٢) العدوى :

المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(١٠٣) حسن (حسن ابراهيم) :

المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(١٠٤) الطبرى :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٣٥٢ .

(١٠٥) ابن النديم :

المصدر السابق ، ص ٤٨٤ .

(١٠٦) ابن النديم :

نفس المصدر ، ص ٣٧١ ،

فراج (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ١٣ .

(١٠٧) ابن النديم :

المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .

العدوى :

المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(١٠٨) بينز (نورمان) :

المرجع السابق ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ ٠

(١٠٩) فراج (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ١٤ ٠

(١١٠) منتصر (عبد الحليم) :

تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، ص ١٠٧ - ١٠٨ ٠

فراج (عز الدين) :

فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية ، ص ٦٠ - ٦١ ،

دار الفكر ٠

فروخ عمر :

تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٣٣٠ - ٣٥٩ ٠

(١١١) منتصر (عبد الحليم) :

المرجع السابق ، ص ١٠٩ ٠

(١١٢) ابن النديم :

المصدر السابق ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ٠

(١١٣) ڤازيليف :

المرجع السابق ، المقدمة ص ١٦ ٠

****

خاتمـــة

تلك سطور أوردناها قدر جهدنا وطاقتنـا ، أوضحنـا فيها مـاذا يقصد بالدبلوماسية ، ثم تحدثنا عن التطور التاريخى للفكر الدبلوماسى فى العصريـن القديم والوسيط ، بعد ذلك تحدثنـا عـن العلاقـات الدبلوماسـية فـى العصـر الإسلامى حتى وصلنا إلى العصر العباسى .

وفى هذا العصر رأينا كيف تنوعت هذه العلاقـات الدبلوماسـية بين السياسية والاقتصادية والاجتماعيه ، والثقافية ، وكيـف كـان للمسلمين بـاعهم الطويل وجهدهم الوافر فى هذه العلاقات التى وإن دلت على شيئ فإنمـا تـدل على سبق حضارى كبير ومتميز .

وقد اقترحت علينا تلك الدراسة عدة نقاط مهمـه ، نطلب مـن اللـه أن يعيننـا علـى البحث فيها وهـى : الملامـح الحضاريـة للرسـل أو السـفراء فـى العصر الإسلامى ، العلاقات الدبلوماسية بين الخلافة العباسية ومعاصريها فى عهد نفوذ الفرس والـترك ، وأخيرا علاقـات أموى الأندلـس الدبلوماسـية بأوربا .

*****

المحتوى

الموضـــوع	الصفحة
الفصـل الأول :	
في الميدان السياسى	٨١
الفصل الثانى :	
في الميدان الاقتصادى	١٠٩
الفصل الثالث :	
في الميدان الاجتماعى.	١٢٧
الفصل الرابع :	
في الميدان الثقافى .	١٣٦
حواشى الباب الثانى	١٤٩
خاتمـــــه.	١٦٦
المحتوى .	١٦٧

****


Bibliotheca Alexandrina
1502884